أحمد منصور الشربيني

رواية

خمر وحليب

سراب مُثمر
وحقيقة جرداء

فريق
متميزون
E-BOOK

إبحار
للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

خمر وحليب

(سراب مُثمر.. وحقيقة جرداء)

رواية

أحمد منصور الشربيني

عن الكتاب..

"كان على قيصر الواقف على مفرق الطرق بلباسه الفاخر الملطخ بالدماء والأتربة وممسكًا بلجام جواده الأسود ذي الشعر المموج أن يتذكر أول مرور له على ذلك المفرق الموحش وكأن سمومه قد أقسمت عند مروره لأول مرة أن تجوب صدره مرة أخرى، وكان ذلك القسم بعد مسيرة عشرة أيام من غار العقرب الذي مكث فيه ليلتين في حيرة من أمره منتظرًا أحد عوام قومه يحمل له أخبارًا غيرت مسار حياته رأسًا على عقب.

رفع قيصر عينيه عن زواله الذي كان تحت الأقدام متخبط الأفكار والمشاعر وكأنه هاجر بوادٍ غير ذي زرع أو يونس في ظلمة بطن حوته، مضيقًا عينيه عاقدًا ما بين حاجبيه متقيًا حرارة الشمس المحرقة التي ما كان يحمي وجهه من أشعتها الغليظة سوى لحيته السوداء الكثيفة المليئة بالغبار، ثم نظر إلى دوامة الريح بالقرب من المفرق وشرد بها كأنها الدنيا حينما عصفته كما تفعل دوامة الريح بالغبار.....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهـــداء

إلى الأولى والأخيرة، إليكِ يا أمي كل ما لدي،
لا هدية مني بل دينًا لن أوفيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

كان على قيصر الواقف على مفرق الطرق بلباسه الفاخر الملطخ بالدماء والأتربة وممسكًا بلجام جواده الأسود ذي الشعر المموج أن يتذكر أول مرور له على ذلك المفرق الموحش وكأن سَمومه قد أقسمت عند مروره لأول مرة أن تجوب صدره مرة أخرى، وكان ذلك القسم بعد مسيرة عشرة أيام من غار العقرب الذي مكث فيه ليلتين في حيرة من أمره منتظرًا أحد عوام قومه يحمل له أخبارًا غيرت مسار حياته رأسًا على عقب.

رفع قيصر عينيه عن زواله الذي كان تحت الأقدام متخبط الأفكار والمشاعر وكأنه هاجر بوادٍ غير ذي زرع أو يونس في ظلمة بطن حوته، مضيقًا عينيه عاقدًا ما بين حاجبيه متقيًا حرارة الشمس المحرقة التي ما كان يحمي وجهه من أشعتها الغليظة سوى لحيته السوداء الكثيفة المليئة بالغبار، ثم نظر إلى دوامة الريح بالقرب من المفرق وشرد بها كأنها الدنيا حينما عصفته كما تفعل دوامة الريح بالغبار.

أغلق عينيه عن الصحراء الشاسعة أمامه والأربعة طرق الممهدة للسير متذكرًا أول مرور له على هذا المكان الموحش وكأنه بات مرتعًا للوحوش والأشباح، في نفس حيرته الأولى كأنه قد قُدر له أو لُعن في كل مرور له على ذلك المفرق أن يكون على تلك الحال من الضياع.

تذكر وجهه الشاحب وتشتته وملابسه الأنيقة وجواده الأبيض عندما مر لأول مرة على المفرق قادمًا من الطريق الجنوبية مجتازًا الطريق الشرقية ببضعة أمتار متجهًا ناحية الشمال ثم سحب لجام جواده فتوقف، وضع يده اليسرى على سيفه ذي النصل المستقيم وفكر قليلًا ثم سحب اللجام من اليمين ليدير ناصية الجواد إلى الخلف ليدخل في الطريق الشرقية باتجاه بحر فارس.

انتصفت الليلة العاشرة بعدما مر بأحداث لم يتخيلها تمر به يومًا وعلى الرغم من إرهاقه الشديد لم يفكر أن يخيم أو أن يأخذ وجواده قسطًا من الراحة بل أكمل طريقه بكل ما يستطيع الجواد من سرعة حتى أحس بإرهاقه فتمهل.

نظر إلى النجوم الواضحة في حلكة الليل المهيب وتحسر على نفسه.

«كيف كنت في الليالي الخوالي وكيف أمسيت الليلة وأين كنت ترعى يا صديقي؟» قالها قيصر محدثًا نفسه وجواده، وعلى الرغم من عواء الذئاب الذي يرن في أذنيه كان يحكم رباطة جأشه فقد اعتاده طوال حياته وتمرس على إبعاد الذئاب آخر شهرين قبل ليلته الموحشة هذه.

بزغ الفجر فأوقف جواده وترجل واضعًا راحتيه على خصره مائلًا بظهره للوراء مطقطقًا عنقه ضاربًا الأرض بأقدامه وأخرج قربة ماء من ثلاث قرب

كانت بجعبته وشرب حتى ارتوى ثم وضعها على فم الجواد ورفع رأسه لأعلى ليشرب فلم يكتفِ بنصف واحدة فأخرج أخرى فشربها حتى أوشك أن يأكل جلد الماعز التي صنعت منه، دلك غرة جواده براحة يده اليمنى وسحبه من لجامه ماشيًا أمامه متحسسًا الأرض بقدميه مستكشفًا هذا المكان المنبسط الفسيح من حوله وقد تجردت ملامح وجهه من أي انفعال قد يبين ما مر به في أمسه أو ما هو مقبل عليه.

ظل قيصر ماشيًا حتى رأى الأفق يمتلئ بحمرة الشروق وما إن مر وقت قصير حتى رأى الشمس تشرق من وراء خيمة كانت بالقرب من امتداد الطريق، كان في ذلك الوقت يتضور جوعًا وكذلك حصانه ويشعر بالإرهاق الشديد ويتخبطه النعاس فقرر اللجوء لصاحب الخيمة طالبًا منه بعض الزاد له ولحصانه آملًا أن يجده مضيافًا ليأخذ عنده قسطًا من الراحة.

وصل قيصر بالقرب من الخيمة وما إن رأى شابة تخرج منها لتجهز البعير البارك بجوار الخيمة إلا أن ارتبك وثبت في مكانه، أحست الشابة بقدوم غريب فاضطربت ودخلت مسرعة للخيمة وما لبثت أن خرجت رفقة شيخ هرم متكئًا على عصا سميكة ومستندًا بذراعه اليسرى على يد ابنته مرتسمًا على وجهه ابتسامة خفيفة ثم أشار لقيصر أن أقبل فأحس قيصر ببعض الطمأنينة.

«حياك الله يا شيخ» قالها قيصر وهو على بعد كافٍ منه ليضمن عدم ريبته.

«حياك الله يا بني» قالها الشيخ مبتسمًا ومشيرًا إليه بالاقتراب.

اقترب قيصر منحنيًا على يده الممسكة بالعصا مقبلًا إياها باعثًا في صدر الشيخ وابنته فيض من الطمأنينة والراحة.

«باركك الإله يا بني، هيئتك مريحة ومطمئنة» قالها الشيخ مبتسمًا ومشيرًا لقيصر بالاعتدال عن انحنائه.

اعتدل قيصر: «عذرًا إن بعثت في نفوسكم الذعر».

أشار له الشيخ بالجلوس: «لا عليك يا بني.»

تركت الفتاة ذراع والدها لقيصر وجلبت بساطًا سميكًا ليجلسا عليه ثم انصرفت إلى جوار الخيمة مشعلة للنار.

ساعد قيصر الشيخ في قعوده ثم قعد إلى جواره ثم أشار إلى البعير قائلًا: «عذرًا إن كنت أخرت ابنتك فلقد كانت تجهز البعير لشيء ما».

«لا يا بني، لم نتأخر فلقد خيمنا هنا منذ ساعات قليلة إثر شعوري بالتعب، فالطريق أمامنا طويل ويوم من التأخير لن يؤثر في مسيرتنا» قالها الشيخ

مشيرًا بيده إلى امتداد الطريق ثم التفت إليه مردفًا: «ولكن ما الذي يجعل شابًا في مقتبل العمر مثلك على هذا الطريق في ذلك الوقت وحده؟»

ابتسم قيصر قليلًا ثم قال: «أنا رحالة أحب السفر وأبحث دائمًا عن أماكن جديدة للذهاب إليها».

« رحالة؟ «قالها الشيخ مستنكرًا «وكيف يا بني لرحالة معتاد على السفر ألا يملك شيئًا ليخيم به ولا زاد يقيم أوده؟ «ملقيًا ناظريه إلى جعبته النحيفة على الحصان التي لا ينم شكلها عن وجود أي شيء داخلها.

ارتبك قيصر قليلًا ثم قال: « لقد نفذ مني الزاد سهوًا وأنا معتاد على النوم في العراء جوار جوادي أو داخل أي غار في بطن الجبل.» هز الشيخ رأسه غير مقتنع بكلامه لكنه أيضًا غير مهتم بالحقيقة.

جاءت ابنة الشيخ من وراء الخيمة مقدمة لأبيها وضيفه الفطور حيث تناولاه ولم ينطق أحد منهما بكلمة حتى انتهى قيصر من طعامه، فشكر الشيخ واستأذنه بالرحيل، لكن الشيخ كان يشعر بأن قيصر يتخبطه النعاس والتعب فعرض عليه أن ينتظر ليأخذ قسطًا من النوم ثم ينصرف من بعده إلى حيث يريد، فقبل على الفور شاكرًا للشيخ سماحته، دخل قيصر إلى الخيمة بعد أن ساعد ابنة الشيخ في وضع الطعام والشراب لجواده ولبعيرها وما إن وضع ظهره في فراش الشيخ حتى غاص في نوم عميق؛ ليأتي رجل ضخم من وسط جموع العوام التي امتلأت الساحة بهم ممسكًا سيفًا ضخمًا ذا نصل مستقيم وطويل ويجثو آخر على ركبتيه أمامه، ذو شامة في خده الأيمن ولحيته قد رعى الشيب في سوادها، وقيصر في العاشرة من عمره يقف بعيدًا جدًا في غار عليه بقعة داكنة تشبه العقرب، مذعورًا متيبسًا في مكانه وقد اتسعا بؤبؤا عينيه حتى كادا أن ينفجرا أثناء مشاهدته لهذا الحدث المهيب المغلف بالغبار وكأن الدنيا تلونت بصبغة حمراء، وما أن رفع السياف ذلك السيف العظيم ليفصل رأس الرجل ذي الشامة عن جسده إلا أن وضع آخر يده على كتف قيصر بالغار، ففزع قيصر من نومه صارخًا فاتحًا عينيه الواسعتين متحسسًا موضع سيفه بيده ليرى ابنة الشيخ تدخل مسرعة للاطمئنان عليه، كان قيصر يتصبب عرقًا فاتحًا عينيه ضعف اتساعهما فاغرًا فاه شاهقًا لا يقدر على التقاط أنفاسه وكأنه غريق ببحر غير ذي قاع وما هدأ روعه إلا بعد أن اقتربت منه واضعة كفها على صدره لتهدئه فبدأ يلفظ أنفاسه ثم وضعت قربة الماء على شفتيه ليشرب وما إن أنزلها حتى دخل الشيخ متمهلًا في خطاه وجلس جوارهما « ماذا بك يا بني؟ يبدو أن سبقت رؤيتنا لك أحداث عظيمة تؤرق نومك « قالها الشيخ محاولًا أن يحصل على أي رد فعل منه دون تريث أو حذر، هرب قيصر من السؤال بحجة أنه بالكاد يستطيع أن يلفظ أنفاسه.

وقفت الشابة جوار قيصر مشفقة عليه ثم قالت موجهة النظر لعينيه «من الأفضل أن تجلس قليلًا في الهواء خارج الخيمة « هز قيصر رأسه ضامًا شفتيه كأنه يستجمع قواه للنهوض ثم أخذت الشابة بيد أبيها ليخرجوا جميعًا، نصبت البنت ساترًا خفيفًا لأشعة الشمس فوق مجلسهما، جلسا قليلًا قبل أن يستهل الشيخ الحوار قائلًا: « ما الأمر يا بني؟ لا ترتاب في شيخ كبير طاعن في السن مثلي، لا تفصل لي ولكن قص عليّ ما يمكنني أن أنصحك لأجله» ثم صمت برهة وسأل مستنكرًا واضعًا كفه على ركبة قيصر « أأنت بخير؟ «، رفع قيصر عينيه الواسعتين عن الرمال مختطفًا بعض النظرات السريعة في أعين الشيخ وابنته وهز رأسه قائلًا بصوت خافت « أنا بخير».

ببسمة خفيفة - نظر الشيخ إلى امتداد الطريق قائلًا: « أقدر حذرك يا بني، ولربما إن لم تكن متعبًا ما لجأت لخيمتي.» ثم نظر في عيني قيصر محدقًا وقال: لكني ما زال لا ريب لي فيك فقد عاملت أناسًا بكثر ما أنجبت النساء وأعرف أن أقرأ الصدور جيدًا، ثم فاجأه سائلًا: « ما اسمك يا فتى؟ لا تخف، فلن تجد ناصحًا غيري في تلك الصحراء الموحشة ولا تكذب عليّ فإن لم تصدقني القول فلن تجد النصيحة صادقة».

تلعثم قيصر قليلًا ثم قال بصوت خافت على مسمع من الشيخ وابنته: « أُدعى قيصر».

«وا حيرتاه « قالها الشيخ ضاربًا ركبته بكفه ناظرًا لابنته ثم أكمل: «ملامحك مختلطة لا يبين فيها عرق واحد واسمك غريب وإن سألتك عن أرضك لن تجيب صدقًا، إلى أين كنت ذاهبًا؟» رفع قيصر كتفيه لأعلى قائلًا: «لا أدري.»

قال الشيخ: تبحث عن مكان تقيم فيه، فقد نال منك ماضيك، وتنهد ثم أكمل: «اذهب إلى مدينة (سالمة) أنا منها وابنتي سارة ولي فيها ابنة أخرى اسمها هند متزوجة سأرسلك إلى زوجها ولكن أنصت لما أقول» أحس قيصر بأن هناك ناصحًا حقيقيًا يساعده في ضياعه هذا، استجمع كل شتات فكره وأنصت للشيخ الذي اقترب في جلسته منه قائلًا: اسمعني جيدًا يا حمزة. فنظر له قيصر مستنكرًا فأومأ له الشيخ برأسه: نعم، لا تقل قيصر أبدًا لأن ماضيك لن يَكَلَّ البحث عن قيصر، اذهب شرقًا حيث مدينة (سالمة) ولا تدخل من البوابة الغربية لأن كل التجار يدخلون منها فهي على طريق ممهدة وكلهم معروفون جيدًا والبضاعة تفتش بعناية والحراس يقفون بكل ركن، فبعد مسيرة يوم من هنا بالحصان على مهل انحرف جنوبًا حتى ترى أسوار سالمة قد ذهبت لترى مشرق الشمس فاذهب معها لتصل إلى بوابة صغيرة تكاد تكون مهملة واحرص أن يكون ذلك ليلًا، ستجد وقتها عامر زوج ابنتي يحرس البوابة، ثم نظر إلى ابنته وقال: أعطيه عقدك يا سارة فنظرت سارة في عيني قيصر وأزاحت وشاحها عن عنقها العاجي وفكت رباط العقد وناولته إياه

فنظر مستنكرًا للشيخ الذي أكمل قائلًا: أعط عامر هذا العِقد فمع زوجته مثيله، وبعد أن تسلمه العقد قل له أن الشيخ حزام قد أرسلني لك لتدخلني المدينة وتعطيني تصريحًا لأتجول بها.

نظر قيصر منتظرًا المزيد متوقعًا أن عامر هذا سيساعده في العيش أو إيجاد عمل قبل أن يستكمل الشيخ حديثه قائلًا: أما الباقي مهمتك، ليست كل الأمور تدرك هكذا عليك أن تصنع لنفسك شأنًا فلو ساعدك كل مَن وطأ الثرى بقدميه فلن تصنع شيئًا دون أن تجد ذاتك أو تستردها، كن دائمًا أمام الناس حمزة واحذر أن تهجر قيصر وحارب من أجل ماضيك الذي أرق نومك، فإن لم تفعل لتلاشى قيصر شيئًا فشيئًا حتى يبدو كمسخ مشوه المعالم والملامح وسيبقى حمزة الذي ليس له جذور من الماضي ليكمل عليها حاضره وآتيه فمهما صمد ما بنى حمزة وتزخرف فهو مبني على ريح ساكنة ستعتي بغتة في أي وقت، هيا يا بني تشجع واسلك طريق قيصر باسم حمزة.

ابتسم وقبل يد الشيخ شاكرًا حسن ضيافته ونصائحه العظيمة ووعده أن يضع كل حرف من كلامه نصب عينيه طوال حياته ثم وقف ليجهز نفسه للرحيل ليجد سارة قد جهزت الجواد للسفر وقد زودته بما يكفيه طيلة الرحلة فاقترب منها ممسكًا لجام جواده الذي قد بدا مسرورًا ومنسجمًا بتدليك كف سارة لغرته وما أن استعد قيصر ليمتطي ظهر الجواد إلا أن سمع صوت سارة الدافئ كما لو أنه صوت اعتاد عليه طوال حياته وفي كل مرة يطربه حين يرقى لمسمعه، «احذر على نفسك يا قيصر، كم أتمنى ألا أكون آخر من يناديك باسمك هذا وأدعو من الله حين تنادى به مرة أخرى أن تكون مطمئنًا وقد حققت غايتك» قالتها ناظرة في عينيه الواسعتين وقد ملأتهما فيضًا من الراحة والأمل.

تبسم لها قيصر ناظرًا لوجهها الذي تمعن فيه النظر لأول مرة حتى ثبت سواد عينيه على شطآن كحل عينيها السوداوين كقمرين قد أَنِسا ليالي البشر ودَنَوَا من الأرض ليؤرقا العالم أجمع بسحرهما، ثم قال بصوت هادئ: كم أتمنى لو نُسخ قلبيكما في صدور باقي البشر كم كنا سنحيا حياة هنيئة وضحك بصوت منخفض وأكمل: ولكني ما كنت لألتقي بكما، لا تقلقي يا سارة إنها أقدار وأنا لي قدري. فابتسمت حتى تزخرف خديها بغمازتين ما ارتقى لوصفهما ملوك الشعر والغزل، مضيقة شطآن الكحل كالبحر حين يداري لآلئه ثم انفرجت فتوهج القمران باسطا سحرهما على الخلائق، فأحس قيصر بلهفة في صدره وأسى وامتطى جواده مودعًا سارة والشيخ وما إن بدء في التحرك حتى شد لجام الجواد تجاه الشيخ.

- ولكن إلى أين وجهتكما؟

- وجهتنا للبيت الذي رفع إبراهيم قواعده.

قالها الشيخ وفي صدره فيض من الحنين لما هو ذاهب إليه.

- أتمنى ألا يكون آخر لقاء بيننا، ولكن لماذا فعلت معي كل هذا؟

- فيك شيء من صديق لي.

- وهل سأجده في سالمة؟

- قد تلقاه بعد مدة فلقد أتته أخبار عن طفل لليهود تكلم في مهده يقال أنه نبي فخرج في طلبه ولا أظنه يعود قريبًا.

هز قيصر رأسه وشد لجام الجواد ناحية الطريق ووكزه في جنبه وانطلق مسرعًا إلى صحراء شاسعة ومصير مجهول لا يعرف منه سوى بضع كلمات للشيخ حزام، لا يضمن منها سوى تصريح دخول إلى ذلك المجهول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

كان الأمل والقلق يتصارعان في صدر قيصر طوال الطريق إلا أنه كان حليفًا لأمله مجبرًا فليس من سبيل للرجوع، ظل الجواد الأبيض الرشيق راكضًا حاملًا قيصر فوق ظهره إلى مجهوله الذي يأمل فيه الخير حتى رأى قناديل أسوار سالمة على مرمى النظر تلمع في حلكة الليل المهيب، فشد لجام الجواد ورجع مسرعًا إلى الخلف حتى لا يراه الحراس حين ينحرف إلى الجنوب وسار على هدى وصف الشيخ حزام ليجد بوابة آماله تطل على مقابر المدينة، لم يكن يعلم أن بوابة دخوله للمدينة هي بوابة خروج مَن لن يدخلها أبدًا مرة أخرى، اقترب قيصر من البوابة ليجد حارسًا جالسًا بالقرب منها داخل الأسوار وما إن رأى قيصر إلا واضطرب واستل سيفه المعقوف صارخًا: مَن أنت وما تفعل هنا؟ رد قيصر على الفور: أبحث عن عامر، أأنت عامر؟ ثم اقترب من القضبان الحديدية للبوابة فتقهقر الحارس خطوتين إلى الوراء شاهرًا سيفه على ارتفاع وجه قيصر قائلًا: لا تسل، أجب فقط مَن أنت؟ شعر قيصر لثوانٍ بالقلق وأن كل ما قيل له عن دخول المدينة هو مجرد خيط رفيع من دخان مشى على أثره واختفى قبل أن يصل وما أن تلعثم قيصر في الرد إلا جاء رجل من وراء الحارس يمشي بخطى هادئة ويبدو عليه الثبات والثقة، وضع يده على سيف الحارس يأمره أن يخفضه ثم نظر في لقيصر قائلًا: ما الأمر يا صديقي؟ أثمة مشكلة؟ هل لي سبيل في أن أساعدك؟ أحس قيصر بالراحة ثم تنهد قائلًا: عذرًا أنا أبحث عن عامر. صمت الرجل قليلًا ثم قال بصوت هادئ: ومن أين لك معرفة عامر؟ فكر قيصر بأن يخرج العقد لكنه خشي أن يكون هذا الرجل أكبر منصبًا من عامر ويؤذيه في عمله إن علم بأنه سيمرره من أجل علاقة شخصية، صمت لبرهة ثم قال: جئت له برسالة، تقدم الرجل خطوتين حيث قضبان البوابة ثم قال: لا تقلق يا صديقي أنا عامر أهلا بك وبمَن حمّلك الرسالة. أحس قيصر بالريب في صدره خاشيًا ألا يكون هذا الشخص عامر فسأله قائلًا: أتعرف الشيخ حزام؟ فضحك الرجل بصوت منخفض: نعم إنه والد زوجتي. فسأله قيصر: أين هو الآن؟ ومع مَن؟ فأجابه: خارج المدينة، ما الأمر يا صديقي؟ اطمأن له قيصر ثم أخرج العِقد مناوله إياه وحين رأى عامر العقد أمر الحارس بالانصراف، ثم أخذه من بين القضبان قائلًا والقلق يملأ صوته: ما الأمر؟ تبسم قيصر ثم قال: لا تقلق فهو وسارة بخير إنه استضافني في خيمته على الطريق وأعطتني سارة عقدها لتتأكد من كلامي ولتعطيني تصريح دخول وتجول في المدينة. صمت عامر قليلًا ثم نظر حوله مخرجًا مفتاحه وفتح البوابة وأدار النظر ناحية قيصر مبتسمًا وهو يقول: أهلا بك يا صديقي، تفضل إلى سالمة. وأشهر يده للسلام عليه ومرره داخل الأسوار ممسكًا يده ثم مرر جواده وأقفل البوابة، ثم دخلا إلى غرفةٍ بجوارها، حرك عامر فتيل القنديل ليجود زيته عليهما بالضوء أكثر ثم جلس إلى طاولة

وأحضر ريشة ومحبرة ورقعة جلد مجهزة للكتابة كانوا بجواره، ثم سأل قيصر غير موجه النظر له: ما اسمك يا صديقي؟ صمت قيصر لبرهة وشرد بفكره بعيدًا وكأنها عشرون عامًا من الذكريات قد حلت جاثمة فوق صدره المثقل بالهموم متذكرًا وجه جدته المبتسم حين كانت تناديه باسم قيصر التي أصرت على تسميته به فلطالما كان مميزًا، وتذكر حينما كانت تداعبه بكلماتها الساخرة ولكنتها الغريبة الغير متمكنة من العربية التي أثرت على نطقه حتى العاشرة من عمره، وما أن قرر أن ينطق باسم قيصر حتى همس صوت الشيخ حزام في مخيلته «إن ماضيك لن يكل البحث عن قيصر» فنظر عامر له قائلًا: أثمة خطب؟ أفاق قيصر من شروده بعد أن عدل عن قراره « أدعى حمزة « قالها مهزومًا، وكأن قبر جدته قد جثم على صدره وسلبه أنفاسه، هز عامر رأسه وسأله مستنكرًا: وقبيلتك؟ صمت قيصر قليلًا ثم قال بصوت منهزم: ألا يكفي حمزة؟ لم يكن يقصد أنه لم يجد اسمًا مزيفًا آخر لقبيلته بل كان مخاطبًا الأقدار بأن يكفيكِ سلبًا لاسمي فلتدعي لي اسم أجدادي، لم يجادل عامر قيصر في شيء بيد أنه فهم أن هناك أمرًا ما لن يدلي به هذا الغريب، لكنه كان مضطرًا بأن يثق به فقد كان جديرًا بثقة الشيخ حزام، ما لبث عامر إلا قليلًا حتى أنهى التصريح ومهره وربطه بخيط رفيع مناوله إياه قائلًا: أهلا حمزة الزيتوني في مدينة الفنون والجمال سالمة. نظر قيصر في عينيه وقد ارتسمت على وجهه بسمة خفيفة تكمن في ملامحها مشاعر شكر وامتنان لما فعله عامر ولكنها لم تدم طويلًا بعد أن طلب منه أن يسلم سيفه فسالمة لا يتجول بها مسلح، غضب قيصر وتغيرت ملامح وجهه قائلًا: مستحيل، إنه إرث أجدادي. أحس عامر بأن هناك شيئًا في صدر هذا الغريب أكثر أهمية من قوانين سالمة وعلى الرغم من ذلك لن يخرقها فهدأه قائلًا: لا تقلق إن سيفك سيظل في خزانة البوابة حتى تستلمه عند رحيلك أو تأتي بتصريح ممهر بخاتم الجيش، لا تقلق لا يفقد شيء في خزانة البوابة ثم مهر له وثيقة تثبت أن له سيفًا بالخزانة، أدرك قيصر أن عليه الرضوخ لما قيل ولا سبيل للاحتفاظ بالسيف مستجيبًا للقوانين بعد أن اطمأن على مصير سيفه، ففك حزامه وسلمه إياه ليجد قبر جدته يزداد ثقلًا على صدره فلطالما كان هذا السيف رمز فخر وتباه ودليلًا على شرفها.

وقف عامر قائلًا: يمكنك أن تبيت هنا حتى الشروق وانتهاء نوبة حراستي فمن المؤكد أنك تعبت من طول الطريق، استرح، سأتولى أمر حصانك. شكرًا عامر، لا أدري كيف أرد إليك جميل ما صنعت لي، قالها قيصر واضعًا كفه على كتف عامر قبل أن يرد عليه قائلًا: لا عليك يا صديقي فأنت ضيفي، وإن كنت تريد ردًا للجميل فلا توقعن نفسك في مشكلة داخل سالمة.

ظل عامر واقفًا في نوبة حراسته يؤمن البوابة الجنوبية، حتى رفع الرجل الضخم سيفه ذا النصل المستقيم ليفصل رأس الرجل ذي الشامة عن جسده

ووضع آخر يده على كتف قيصر في الغار ففزع قيصر من نومه مادًا يده بجواره ليطمئن على سيفه فلم يجده.

كان الأفق قد تلون بصبغة الشروق لتشرق الشمس من بين موجات البحر الذهبية خلف انتهاء أسوار سالمة، نظر عامر خلفه ليجد قيصر يخرج من غرفة الحراس مستعدًا للمغادرة ففك وثاق حصانه واقترب منه مناوله اللجام قبل أن يشكره قيصر وقبل أن يغادر سأل عامر عن مكان يمكنه بيع حصانه فيه فنصحه بالتوجه للسوق العامة ففيها كل التجارات، وما أن شرع قيصر في المغادرة حتى ناداه عامر قائلًا: حمزة! فتوقف قيصر كما لو أن اسم حمزة سهم غار بين ضلوعه وطفا أمام عينيه وجه جدته، ثم أدار النظر ناحية عامر الذي نصحه قائلًا: لا تعتمد على ما تجنيه من ثمن حصانك، حاول أن تجد عملًا إن كنت تنتوي البقاء في المدينة.

ولحسن حظك أن هذا الوقت من كل عام تشهد المدينة رواجًا كبيرًا ففي هذا الوقت تقام احتفالات الترفيه التي لا تنقطع طوال خمسة عشر يومًا ولكن انتق عملًا يناسب طبيعة المدينة. هز قيصر رأسه وأشار بيده لتوديعه قبل أن يقول له عامر: احذر على نفسك يا حمزة وإن احتجتني فقد عرفت مكاني.

سحب قيصر حصانه وانصرف حيث طرقات جنوب سالمة الضيقة ليجدها تعج بالفوضى وروث البهائم على جانبي الأزقة والممرات التي تفوح منها رائحة تعكر صفو نسيم الصباح الهادئ، والتجار في كل مكان يحزمون بضائعهم للذهاب إلى السوق العامة، فتبعهم وهو يخاطب نفسه أهذه سالمة؟ تعج بالفوضى والقاذورات؟ ولكن لماذا وصفها عامر بمدينة الفن والجمال؟ ظل طوال طريقه مترددًا في بيع حصانه تراوده أفكار أن يترك تلك المدينة التي تختنق فيها الأنفاس برائحة الروث ويبحث عن مدينة أخرى، لكنه أكمل طريقه للسوق عله يجد ما يبقيه داخل الأسوار حتى وصل إلى ممر ضيق لا ينم شكله وحجمه عن وجود شيء بآخره يتسع عن مقبرة، لم يكن يتوقع أن بنهايته ساحة واسعة بالسوق العامة، نظر قيصر إلى اتساع السوق وتنظيمه ونظافته وتعجب من أمر الممرات التي سار بها وما إن نفحه نسيم الصباح المعطر برائحة البهارات والعطور حتى سكنت نفسه وقرر استكشاف المدينة مبتدئًا بالسوق ليجد أن به حوانيت ثابتة غير هؤلاء التجار الذين يجيئون ببضاعتهم من الجنوب كل صباح، سحب حصانه وتجول بين الناس ولأول مرة في حياته يجد نفسه بين هذا الكم من الغرباء، لم يشعر بأي ذعر أو قلق؛ الناس جميعًا على وجوههم ابتسامة قد ارتسمت ترحيبًا بالغرباء، تجول متفحصًا الحوانيت ليجد غالبيتها تشتغل بالآلات الموسيقية والعطارة والعطور والخمور أما باقيها فقد شغلها تجار الأقمشة والمفروشات ثم من بعدها تأتي الفاكهة والخضراوات وباقي التجارات كانت في أقسام منفصلة، اتجه مباشرة صوب تجار الخيول

سائلًا عن سعر حصانه حتى وصل إلى تاجر شعر بالود في محياه فأقبل عليه ليبيع حصانه بعد أن عدل عن ترك المدينة، كان لطيفًا وخلوقًا مما جعل قيصر يسأله عن بعض ما أثار فضوله: لماذا كل هذا الكم من الآلات الموسيقية في السوق؟ ضحك الرجل ضحكة ودودة قائلًا: أنت في سالمة.

رفع قيصر كتفيه مستنكرًا قبل أن يكمل الرجل: إنها بلاد الاحتفالات والموسيقى.

فلمعت بعقله فكرة وابتسم قائلًا: ها قد وجدت عملًا. رد التاجر قائلًا: أتمنى لك كل الخير ولكن إن كنت ستبقى في المدينة عليك أن تجد مسكنًا فقوانين سالمة تمنع النوم في الطرقات أو الحانات وإن لم يكن بحوزتك الكثير من المال فأنصحك باستئجار غرفة من غرف التجار الغير دائمين فإن سعرها سيناسبك ولكن للأسف هي في الجنوب الغير لائق للحياة أو الاستقرار فهو مخصص للتجار وبضائعهم، أما إن كان بحوزتك من المال ما يكفي فاستأجر في وسط المدينة أو أي من المناطق الراقية الموجودة في كل أنحاء سالمة عدا الجنوب.

ضحك قيصر بصوت مرتفع قائلًا: الآن قد فهمت، شكرًا لك، لقد كنت محتارًا من أمر الجنوب. انصرف قيصر بماله الذي جناه من بيع حصانه وجعبته التي كانت عليه متجهًا إلى حوانيت الآلات الموسيقية ليجدها غاية في الجمال والزخرفة، دخل أفضلهم سائلًا التاجر: هل يمكنني أن أشتري عودًا؟ فأجابه التاجر بعد أن رحب به: بالطبع، فالعود الذي ستشتريه موجود هنا من أجلك ينتظر قدومك يا صديقي. ابتسم قيصر من حسن تعامل الرجل طالبًا منه أن يرشح له عودًا جيدًا فأمسك الرجل عودًا ووضع أصابعه على أوتاره متحدثًا بصوت خفيض إن ذلك العود لديه أفضل أربعة أوتار في هذه المدينة ابتعه فسعره زهيد.

أمسك قيصر العود وجلس على كرسي وعزف مقطوعة قصيرة وما أن انتهى حتى صفق له الرجل بحرارة سائلًا: أتشتغل بالموسيقى؟ أم أنك تشتريه لنفسك؟ فأجابه قيصر: كان لدي عود قديم عزفت عليه طوال حياتي لمتعتي، أما الآن ومع هذا العود سأعزف وأغني لكسب الرزق. فرد عليه الرجل قائلًا: سيذيع صيتك في سالمة يوما ما، أجزم بذلك؛ عزفك رائع ومن المؤكد أن صوتك فيه شيء منه؛ شكره قيصر وابتاع منه العود وانصرف متجهًا إلى وسط المدينة ليجد على طرف السوق رجلًا يقف أمام حانوته يقدم المخبوزات للناس، فتذكر أن آخر طعام قد نزل جوفه هو ذلك الذي أُعد بيدي سارة وأن لديه ما يكفيه في جعبته، سار باحثًا عن حانة يستريح بها ويأكل سالكًا الطريق المؤدي إلى وسط المدينة وكأنه ببلدة أخرى غير تلك التي كانت جنوب السوق. ليجد الطرقات الرملية الواسعة الممهدة للسير مزينة

بأشجار النخيل القصيرة، والبيوت على جانبي الطريق ذات جدران ملونة ونظيفة تفوح من خلف أسوارها رائحة الفطور وصوت الأطفال تلهو داخل الأفنية وفي الشوارع، ظل قيصر في طريقه يشاهد من الرقي ما لم يشاهده من قبل وتلك الأجواء التي ذكرته بحكايات جدته عن طفولتها وتمنى لو أنه ولد أو عاش عمره كله في تلك البلاد التي جاءت منها جدته. حتى وصل إلى مكان زاد في نفسه البهجة حيث الميدان الكبير في وسط المدينة ليجده يلتف حول بئر واسعة بنيت من أحجار كأنها مكسوة بالذهب، تلتف حولها عدة أعمدة حديدية مزخرفة كأن داوود بُعث ليشكلها على تلك الهيئة البديعة، مثبت على كل عمود قنديل وخزانة زيت ويُربط في تلك الأعمدة عدة أوشحة ملونة بألوان مختلفة تتمايل كما شاءت الريح أن تذهب؛ لتداعب الحمائم التي تملأ الميدان وكأنهما وجدا لغة ليتواصلا بها حتى إن تعبت الحمائم هبطت على أرض الميدان المرصوفة بصخور متلاحمة جمعت من جبال بعيدة جدًا عن تلك البلاد وقد أحضرت خصيصًا ليرصف بها الميدان لتلاشي تناثر الغبار والرمال وإزعاج رواد الحانات وعلى جانبي الميدان رصت الحانات متجاورة كقطع الصخور في أرضه يتخللها بعض المخابز وحوانيت بيع الحبوب للحمائم وحوانيت العطور التي لا يقل جمال واجهاتها عن جمال الميدان في شيء.

بعث ذلك المشهد في صدر قيصر فيضًا من الأمل والشغف بتلك المدينة وأدرك أن عليه المكوث بها أطول فترة ممكنة مخاطبًا نفسه إنني أستحق أن أحيا في هذا الجمال، كانت كل الحانات الموجودة في الميدان مغلقة فبحث عن مكان يجلس فيه ليتناول فطوره فلم يجد سوى مخبز لجأ إليه وسأل صاحبه عن سبب إغلاق الحانات فأجابه الخباز وذراعاه مشغولتان في تقليب العجين وعيناه على نيران الفرن: إن القانون يمنعها من ممارسة نشاطها صباحًا حتى الظهيرة لكي لا تلهي الناس عن تجارتهم، استأذنه قيصر بأن يجلس أمام المخبز ليتناول فطوره فسمح له الخباز بذلك ثم سأله عن كيفية استئجار غرفة في وسط المدينة فأخبره الخباز أن أخاه يعمل في هذا المجال وكان يحدثه في ليلة الأمس أن كل الأماكن المخصصة للإيجار قد حجزت تقريبًا بسبب احتفالات الترفيه، وأنها باهظة الثمن جدًا مقارنة بالأيام العادية طوال العام.

فكر قيصر بأن يتريث في مسألة الاستئجار بالأماكن الراقية حتى لا يخسر الكثير مما لديه من أموال ثم سأله عن الجنوب وعما إذا كانت هناك أماكن متاحة فيه، فأجابه وهو يرمي بعض أقراص العجين في الفرن إن الجنوب دائمًا متاح فليس هناك إقبال عليه فهو مخصص للتجار الرحالة ولا يقيم فيه إلا بضع عائلات فقيرة جدًا فسأله عن كيفية الاستئجار فيه فأجابه: ستجد أكثر من شخص يجلسون في أزقته، هم المسؤولون عن إيجار الغرف والبيوت هناك. ذهب قيصر كما أخبره الخباز واستأجر لنفسه غرفة صغيرة ودفع

لصاحبها إيجار أسبوع وخلد إلى فراشها المهترئ، لكنه أفضل بكثير من تعب التسكع في الطرقات، دون أن يؤرقه كابوسه الذي انتهك حرمة نومه مرتين كان في أشد الحاجة للراحة بهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

استيقظ عصر يومه الأول في سالمة وخرج إلى الزقاق الذي تطل عليه غرفته حاملًا عوده متجهًا إلى الميدان ليبحث عن حانة يجلس بها وما أن وصل حتى اختار أقرب حانة للبئر وأوسعها مساحة فقد كانت بحجم حانتين من دونها، ذات باب واسع مفتوح على مصراعيه موضوع أمامه عدة كراسي وطاولات غير تلك التي تملأ الحانة من الداخل.

جلس قيصر على يسار الحانة في الخارج ونظر إلى داخل الحانة ليجد الطاولات تلتف حولها الكراسي في مقابل منصة خشبية عليها بضع كراسي صغيرة تشغل جزءًا بسيطًا منها، كان مشهدًا غريبًا لم يعتَده أبدًا، انتظر قليلًا حتى خرج له صبي الحانة يسأله عما يشرب فطلب منه كوبًا من حليب الماعز فأحضره له الصبي، جلس قيصر يتأمل المارة في ساحة الميدان ويراقب حركات الحمائم التي تداعبها أوشحة الأعمدة فوق البئر مع هبوب نسيم الخريف العليل على ساحة الميدان وبعض النساء والفتيات يشترين الحبوب ليلقينها إلى الحمائم على أرضه المرصوفة بالحجارة الملساء حتى لاح في مرأى عينيه شابة تأتي من أحد الشوارع المطلة على الميدان؛ خطفت ناظريه بمشيتها الرقيقة وقوامها الرشيق المليء بالحنايا كغصن لين في مهب الريح، حتى إن اقتربت بدا جمالها أعنف وأشرس كأنه يصدر ضجيجًا من حوله يعج بالأنوثة والجاذبية كأنها قالب نُحت على شاكلته آلهة الجمال عند الإغريق أو حجر بابلي نقشت عليه طلاسم الجمال والأنوثة، ظلت تقترب ناحيته ناظرة في عينيه الواسعتين من بعيد كأنها تقصده هو لا غيره، كان النسيم قد مل الميدان وتجمع حول خصلات شعرها المموج الأسود ليداعبها ويزيح عنها الوشاح، نظر قيصر بعينيها ليجدهما أغرب من كل ما شاهد في سالمة - زيتونتان وقد ثبتتا بين غابات من أهداب مكحلة لملكة جمال بابلية - اشتد النسيم قليلًا ليريها بعضًا من عنفوانه ترحيبًا بقدومها حتى نفح بعض أهدابها السوداء الطويلة فطرفت عينها وسالت دمعة أوقفتها بمقربة من قيصر، تحسست جفنها حتى سالت الدمعة برفق من مدمعها على خدها ذي البشرة الخمرية الملساء ثم نظرت في عيني قيصر باتساع عيونها دون أن ترفع رأسها تجاهه ودخلت إلى الحانة، كان قيصر حاله كحال النسيم بيد أنه لم يجد سبيلًا ليشفي غليل عنفوانه به، نظر داخل الحانة حتى اختفت داخل ممر وراء ستارة قرمزية مطرزة بخيوط ذهبية حجبتها عن عينيه.

فاجأه رجل في العقد الرابع من عمره:

- عود جميل أخشى أن يكون باهظ الثمن.

التفت إليه قيصر مبتسمًا:

- لا يهم الثمن ما دمت تنفقه فيما تحب.

- ولكن قد يكلفك هواك الكثير ما دمت تتبعه.

- وهذا تصديق على ما قلت.

ضحك الرجل ضحكة ودودة شاهرًا يده للسلام:

- أنا عابد، مالك الحانة.

فوقف قيصر مبتسمًا ورحب به ودعاه لمشاركته الطاولة فجلس وهو يتحسس العود بيده قائلًا: - ألن تخبرني باسمك؟

خفتت بسمة قيصر قليلًا وأجابه بعدما تخلص بعض الشيء من مشاعره الحزينة التي تحل عليه كلما سمع اسمه الجديد: - أدعى حمزة.

- أجئت لاحتفالات الترفيه؟

- أجل، كيف عرفت؟

ضحك عابد:

- لم أرَ تاجرًا يحمل عودًا من قبل، وهذا هو الميعاد السنوي لموسم الاحتفالات، هل هذه أول زياراتك لسالمة؟

- أجل، إنها الأولى لكني أحببت المدينة كثيرًا وأريد البقاء بها.

محاولًا الوصول بحواره لإيجاد فرصة عمل بالحانة: - غير أني لا أعرف كيف أعيش هنا ومن أين سأحصل عيشي.

- هل امتهنت أي مهنة من قبل؟

- أنا أعزف وأغني بإتقان، هذا ما كنت أفعله طوال حياتي.

فكر عابد قليلًا:

- هل بحثت عن عمل في أي مكان هنا؟

- لا إنه اليوم الأول لي وأخشى أن كل الحانات مكتفية.

- فعلًا، ولن تجد مكانًا فارغًا إلا هنا - مشيرًا إلى حانته.

ابتهج حمزة لهذا قبل أن يسأله:

- ولكن لماذا لا يوجد لديك مطرب أم أنك تريد آخر؟

اتكأ عابد على كرسيه:

- يا بني إن حانتي ليست بحاجة لمطرب فلدي أفضل راقصات في المدينة إنها أكبر حانة في سالمة وصاحبة أكبر إقبال من الرواد ولكن أحببت أن أعطيك فرصة لتبقى فإن اقتنعت بك وزاد الإقبال أبقيت عليك بأجر مطرب فقط فلدي عازفون وإن عزفت فهذا لنفسك وليس عليه من أجر وصمت برهة ناظرًا في عينيه ثم استكمل سائلًا: اتفقنا؟

فمد حمزة يده على الفور واضعها على يد عابد: - بالتأكيد، لست متخيلًا أنني حصلت على عمل بهذه السرعة.

ضحك عابد ضحكة عالية ووقف عن كرسيه محدثًا نفسه يبدو أنه سيستمر معي، وأشار إليه للنهوض: - تعال لأعرفك على باقي العاملين هنا.

كان رواد الحانة قد بدأوا في التوافد باكرًا ليحجزوا لأنفسهم مكانًا بالقرب من المنصة عندما اصطحبه عابد إلى ما وراء الستارة القرمزية المطرزة فأخذت دقات قلبه تتسارع حين أدرك أن ربما ذات العيون الزيتونية تعمل هنا وأنه سيراها كل يوم وأيضًا أنه سيتعرف على أناس جدد لأول مرة في حياته.

كان متحمسًا طوال سيره في الممر حتى وصلا إلى غرفة بها ثلاثة عازفين وأربع راقصات لم تكن من بينهن ذات العيون الزيتونية يرتدين قمصانًا مكشوفة الكتفين وأعلى الصدر وتنورات قصيرة متوشحات بأوشحة شفافة على ما ظهر من أجسادهن، صفق عابد فتوقفوا بعد أن كانوا يتمرنون على عروض لن تعرض الليلة بل هي تجهيزات لاحتفالات الترفيه، أشار عابد إلى حمزة قائلًا: هذا حمزة سيكون مطرب الحانة، أريدكم أن تتخذوه صديقًا وتعلموه ما يجب أن يتعلمه، هز الجميع رؤوسهم مرحبين قبل أن تدخل الفتاة ذات العيون الزيتونية؛ ثبت حمزة في مكانه، فأشار لها عابد أن تعالي نيروز، صار لدينا مطرب في الحانة لكنه لم يمتهنها من قبل؛ أريدكم أن تأخذوا بيده؛ إنه حمزة، تقدمت نيروز باتجاه حمزة مادة يدها للسلام عليه ثم قالت: أهلا بك بيننا لا تخشَ شيئًا ستتعلم كل شيء، فنظر في عينيها قائلًا: أتمنى ذلك بصحبتكم. وظلا واقفين بضع ثوانٍ كل منهما ممسكًا يد الآخر حتى وضع عابد يده على كتف حمزة، فأفلت يدها ثم اصطحبه إلى خارج الغرفة وخلال سيرهما في الممر أخبره أنه لن يعمل قبل ثلاثة أيام ليجلس يراقب ويتعلم ثم دعاه ليحتسي النبيذ قائلًا: نبيذك اليوم على نفقتي ولكن لا تعتد ذلك! ابتسم حمزة خجلًا: - لست ممن يستهويهم النبيذ فلا أشرب غير الحليب.

- جيد؛ لا تكلف نفسك الكثير من النفقات.

قالها عابد بعدما خرجا إلى قاعة الحانة حيث امتلأت بالرواد فأجلسه بالقرب من المنصة، لم يبرح حمزة مكانه حتى انتهاء العروض قبل الفجر بقليل ومن ثم رجع إلى منزله، ظل على هذه الحال مدة ثلاث ليال؛ في كل يوم يستيقظ

عصرًا من نومه الذي أفسده عليه كابوسه مرارًا ولا يجلس في غرفته أكثر من وقت استعداده لمغادرتها فقد كان لا يطيق الإقامة في الجنوب ويذهب إلى الحانة ليجلس في نفس مكانه الذي جلس فيه أول مرة ليشاهد الميدان وحمائمه والمارة ويستمتع بهبات نسيم الخريف ويراقب تساقط أوراق الشجر القليلة في الميدان، ثم يجلس مع زملائه يتحدثون عن عروض احتفالات الترفيه ويتمازحون ويشكو لهم ضجره من الجنوب ويحدثهم أنه في يوم ما سيقطن وسط المدينة بالقرب من الميدان.

كانت نيروز دائمة الصمت تستمع لهم وتحتسي النبيذ وتجلب لحمزة الحليب بيدها على نفقتها دون أن تتحدث معه لا بين زملائهما ولا منفردين بيد أنه هناك حديث آخر بالعيون فقد تلاقت مرارًا وما كسر الصمت بينهما إلا اعتراضًا من حمزة على إحضارها الحليب له على نفقتها، فرفعت عينيها لعينيه: - أعلم أن عابد بخيل ولن يعطيك أية أجر قبل ثلاثة أيام من عملك.

فأراد أن يوضح لها أن لديه ما يكفيه من المال وما إن أهم لينطق اعتراضًا حتى وضعت أطراف أصابعها على شفتيه ناظرة في عينيه: - لا داعي للجدال!

فصمت حمزة وثبت في مكانه وانصرفت هي لتجهز نفسها للعروض.

جاء اليوم الذي سيبدأ فيه حمزة عمله بعد أن تمرن معهم على عدة قصائد من الشعر المشهور، وكعادته خرج من غرفته عصرًا وتوجه إلى الحانة وجلس بمكانه وبينما هو جالس لاحظ رجلًا يأتي من الجهة الأخرى للميدان طويلة قامته واسع صدره ذا بشرة بيضاء ولحية ذهبية غلب عليها الشيب وعينين زرقاوين داكنتين ولباس ونعال ناصعي البياض غيرَ معمم يبدو على ملامحه أنه في بداية عقده الخامس ذا طلة مهيبة يفرض بها حضوره على الجميع.

وكان بعض من المارة يقفون أمامه ليسلموا عليه ويتحدثوا معه، لفت ذلك نظر حمزة، بيد أنه لم يهتم كثيرًا فقد يكون رجلًا ذا شأن في المدينة حتى فاجأه عامر بالوقوف أمامه والسلام عليه متحدثًا معه قليلًا عن أحواله؛ فأخبره أنه قد حصل على عمل في الحانة وشكره على ما فعله معه عند دخوله سالمة، كان ذلك آخر لقاء بينهما لم يقابله حمزة بعد ذلك على الرغم من محاولاته، وبعد أن انصرف عامر نظر حمزة إلى الميدان فلم يجد الرجل فجلس يستمتع بالميدان ونسيمه وأوراق الأشجار المتساقطة على أرضيته الملساء وشرد بورقة يابسة علقت بأحد أوشحة الأعمدة فظل يتابعها حتى انتزعها النسيم لتستقر بجوار الأخريات، فشعر في نفسه كم أنها هانئة رغم سقوطها إلا أنها بالقرب مما يذكرها بجذورها.

فاجأه صوت أجش:

- في بلادي يحتفلون ابتهاجًا بالربيع، لكن الخريف كان دومًا مفضلًا لي ويبدو أنك على شاكلتي.

فنظر حمزة على يمينه ليجد الرجل ذا الملابس البيضاء الذي رآه آنفًا يجلس يمين باب الحانة ناظرًا إلى الميدان، دام الصمت بينهما لحظات حتى التفت الرجل ناحية حمزة.

- ألست تفضل الخريف مثلي؟

- بلى، كيف عرفت؟

- إن منظر أوراق الشجر اليابسة المتساقطة لا يستهوي أي شخص إلا لشيء في قرارة نفسه لا يعلمها سوى صاحبها، وقد لا يعلمها ويبقى بعشقه دون أن يدركه، ولكني أدركه فلقد ولدت فيه.

ببسمة خفيفة نظر حمزة في عيني الرجل:

- أنا أيضًا ولدت في الخريف.

صمت الرجل هنيهة ثم قال:

- إذن فقد أصبت حين قلت أنك على شاكلتي.

- وما دخل ميلاد الخريف بطبائعنا؟

- في قناعاتي أن ميعاد مولدنا يؤثر فينا وفي طبائعنا وقد أخطئ في مجمل الأمر، لكني أظن أني أصبت تلك المرة.

- لا أدري، ولكن تشابهي مع شخص مثلك لهو شرف لي.

ظل الرجل محافظًا على ارتخاء عضلات وجهه الذي لم تعلوه ابتسامة مذ أن استهل حديثه مع حمزة، صمت قليلًا بعد مديح حمزة له ثم قال: - يبدو أنك شخص لطيف، بيد أني لا أعلم إن كنتُ هكذا أم لا، لقد تعبت من رفع صوتي لتسمعني، أتسمح لي بمشاركتك الطاولة؟

- بالطبع، تفضل.

وقف الرجل من على كرسيه ليجلس جوار حمزة، فوقف له احترامًا فأشار له الرجل بالجلوس، وجلس بعد أن رفع عباءته البيضاء قليلًا حتى لا تتسخ.

- أنا صِدّيق، يلقبونني هنا صِدّيق الأبيض.

قاطعهم فتى الحانة مرحبًا بالسيد صديق، فابتسم له وطلب منه قنينة نبيذه وقدحه قبل أن يرد حمزة: - أهلًا بك سيدي، أدعى حمزة.

- أنت غريب هنا، أليس كذلك؟

- نعم جئت من أربعة أيام وهذا أول أيام عملي بالحانة.

- من العظيم أن يُنجز أمر بهذه السرعة، لقد كنت يومًا غريبًا مثلك بيد أني لم أنجز أموري بنفس سرعتك، ثم تنهد طويلًا واستكمل: ذكرتني برحلاتي وتغربي، في بادئ الأمر كنت أخشى أن أكون غريبًا حتى اكتشفت فوائد الغربة.

- أي فوائد وهي تملأ الصدر ضيقًا ووحشة؟

- إن الغريب دائمًا مميز، شخص مختلف وتجربة يريد الناس خوضها، لا يعلم أحد مَن أنت، ومن أين جئت، ولا يسعهم إلا تصديقك وإن كذبوك، فكل ما مضى مجهول، ولن يعاملك الناس إلا على ما بدا منك فإن أهنت نفسك أُهنت وإن أكرمتها أُكرمت، فاستغل كونك غريبًا وافعل ما يكون رده احترامك، يا بني إن الغريب مفضل دائمًا وخاصة عند النساء.

فانقلبت كل رزانته وهدوئه إلى قهقهة عالية لكنها ظلت مختزنة هيبته ولم تنقص منها شيئًا بل زادتها، وضحك حمزة بصوت منخفض.

- لا أدري ماذا أقول، نظرتك للأمور مختلفة، رغم أني غارق في متاعب غربتي ووحدتي وغرفتي البالية، لكني الآن متحمس لتلك التجربة التي كنت أصفها لعينة.

فنظر صديق في عينيه مبتسمًا كاتمًا ضحكة بداخله: - أكل هذا من أجل تفضيل النساء للغرباء؟ ثم انفجر ضاحكًا واستكمل: لا أعلم أن ذلك الأمر سيزيح عن وجه غرفتك ستارتها البالية.

ظلا يضحكان قليلًا، ثم استكمل حديثه:

- أخبرني، ماذا كنت تفعل في حياتك من قبل؟

تلعثم حمزة دون أن يبدي له الأمر:

- أحببت أن أكون رحالة وسالمة هي أول مقصد لي.

- خرجت أيضًا من بلدي مرتحلًا وقررت أن أتعلم كل شيء وأمزق كل معضلة تصادفني، وأعَلم ما تعلمته لمَن يستحق ليكون لغربتي ثمر وثمن أحصّله قبل أن يواري جسدي الثرى ولكن لكل مرتحل شيء يبحث عنه، فعمَ تبحث أنت؟

تجرد حمزة من خوفه وماضيه وتحدث معه بكل صدق دون أن يتطرق لما حدث في حياته قبل أول مرور له على المفرق: - حقيقة لم أكن أضع أي شيء نصب عيني لأبحث عنه، لكني أراك حكيمًا، وقابلت من قبلك حكيمًا،

وأتمنى أن أكون على ذلك القدر من الحكمة بمثل نظرتك المختلفة للأمور لعل ذلك الأمر يؤول بي إلى شيء لم أفكر به بعد لكني أتوقعه عظيمًا.

- إذن فهي الحكمة.

- أعتقد ذلك.

- دعني أفسر لك بعض الأمور، من العظيم أن تصنع حكمتك بنفسك عبر طول ترحالك والتجارب التي ستحياها طوال تلك الرحلة ولكن ستقابل في طريقك بعض الحكماء وستلجأ لما في صدورهم من أسرار دفينة، وستجد كل واحد منهم يرى العالم من خلال عينيه هو لا من خلال عينيك، فهو اختار ما يناسبه وقد لا يناسبك، فقد ترى ثمرة على شجرة فمن حكمة القرد تسلق الشجرة وإحضار ثمرته، ومن حكمة الحصان ضرب الجذع بعضلاته القوية فتسقط الثمرة، ومن حكمة الفهد ألا يلتفت لمثل هذه الثمرة ويبحث عن غزال يشفي بها نهم أنيابه، لكل طريقته التي اختارها أو ابتدعها على قدر قدرته لا قدرة غيره، فلا تجعل عقلك كالدواب المسخرة يمتطيها كل مَن يريد، بل انتق ما يرقى لعقلك ويتخلل سحيق أعماق قناعاتك ومع مرور الزمن ستصبح كأوتار عودك تطرب كل مَن يسمعها ولا يرق للعزف عليها إلا مَن تعلم طريقتها وخضع لقوانينها، فتتحكم فيه ويستبدل بها لسانه، فقل ما شئت وقتها سيتبعك ويؤمن بك ويستميت دفاعًا عنك واحذر أن تميل بفكرك لترضي الجميع؛ فتصبح كالعاهرة تتجمل لترضي الرجال، لكنها تبقى بلا قلب يحنو عليها حين يَبهت جمالها.

- ولكن قد تلد العاهرة ابنًا يحنو عليها.

تجرع صديق بعضًا من النبيذ ثم وضع كأسه على الطاولة وقال: - يا لضيعة مَن انتظر الخير من ابن عاهرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

ظل صديق جالسًا بالحانة بعد أن أنهى حديثه مع حمزة وتركه ليستعد لأول عرض له الذي تجلى فيه وأطرب الجميع، فهم يتأوهون معه كلما تجلى اللحن وأسرهم بطريقة عزفه الفريدة وإتقانه وتمكنه من عوده، فلقد سُمعت هذه الألحان والأشعار من قبل كثيرًا فهي مشهورة جدًا وتقريبًا معظم مطربي الحانات يتغنون بها بيد أن حمزة أضاف لها نكهة بحليات صوته ونغمات عزفه الجديدة على مسامع الناس في سالمة، كان الناس سعداء متحمسين جدًا لسماعه مجددًا كلما أخذ قسطًا من الراحة، لكن هناك مَن كان أسعد من الجمهور، أولهم عابد فقد يدر عليه حمزة مزيدًا من الربح وإقبال الناس على الحانة وثانيهم نيروز فإن البسمة لم تفارق ثغرها طوال العرض على غير العادة، نعم لقد كان قلبها يرقص فرحًا بنجاحه أكثر من فرحته بنفسه، أما عن سر غبطتها فهي لا تعلم عنه شيئًا كالعشق الذي تحدث عنه صديق بأن يبقى صاحبه به دون أن يدري سره، أما ثالثهم وهو الأكثر فرحًا كان صديق الذي ظل منصتًا لغناء حمزة طوال الليلة شاردًا يفكر فيه كأنه يعيد ترتيب الميدان الذي شيده بنفسه من قبل، وبعد أن انتهت العروض ذهب جميع العازفين والراقصات وعمال الحانة يهنئون حمزة أما نيروز فدائمًا ما تحظى بوقت لنفسها منفردة فهي أولى بهذا الحق، فإن لم يكن نصيب الأسد لشابة بمثل جمالها وفتنتها فمَن تلك التي تحظى به، أقبلت على حمزة مبتسمة الثغر يشع من عينيها فيضًا من اللهفة والسعادة واحتضنت يده بين كفيها ناظرة في عينيه الواسعتين.

- أحسنت، إن قلبي يرقص فرحًا.

وما إن أهم حمزة يشكرها إلا أن ارتبكت ونظرت نظرات سريعة حولها وأفلتت يده وانصرفت مسرعة إلى ما وراء الستارة القرمزية، وعلى الرغم من كل مهنئيه إلا أنه كان مهتمًا أكثر بأن يعرف رأي عابد، بحث عنه بعينيه فوجده يقف مع صديق في زاوية الحانة يتكلمون بصوت خفيض وقد بدا على ملامحهما الجد فتغير وجه حمزة أسفًا على حظه محدثًا نفسه بأن هناك أمرًا أكثر أهمية من نجاحه يشغل بال عابد الليلة، ما لبث إلا قليلًا قبل أن ينصرف صديق دون أن يدير النظر ناحيته وأقبل عابد إليه.

- أحسنت يا بني، جهز نفسك فمن الغد ستتمرن على عروض احتفالات الترفيه.

ووضع يده على كتف حمزة:

- إن النجاح في احتفالات الترفيه لهو النجاح الحقيقي، لا يغرنك ما حزته الليلة، إياك أن تغتر بنفسك، فهذا بداية السقوط في بئر الرتابة.

أحس حمزة بالفتور قليلًا وأن الأمور لا تسير على درب ممهد دائمًا فهناك بعض الأشواك القليلة لكن لا بأس بها ما دام النجم يلمع من بعيد.

خرج إلى الميدان مستنشقًا نسيم الفجر الذي أبكر في الوصول إلى البئر مسترجعًا ما حدث في يومه، شاردًا بكلام صديق الأبيض وما حدث بعد العرض، حتى أحس بصوت نيروز تخاطبه: - هل لي الحق بانتهاك حرمة عزلتك؟

- إن لم يكن لنيروز حق في عزلتي فلمَن؟ عابد!

ضحكت نيروز ضحكة عالية رن صداها في بطن البئر.

- إذن لنترك عابد وحانته لتوصلني إلى المنزل أم هناك أهم من رفقتي؟

كانت نيروز مبتهجة على غير العادة ولأول مرة تتكلم بذلك الوضوح وتلك العفوية مع أي شخص، سارا معًا بشارع متفرع من الميدان شرقًا صامتين حتى ابتدأت نيروز الحديث: - لقد سمعت كلام عابد لك وشعرت بنفس إحساسك، لا عليك أنت أفضل مَن غنى وعزف في سالمة، لا تجعل قوله يقلقك، إنه لا يريدك أن تشعر بقيمتك كي لا تطالب بأجر أكبر، أما عن احتفالات الترفيه فأنت أهل لها ومن الغد سأساعدك في التجهيز، فلم يبقَ سوى ثلاثة أيام وأظنها كافية لشخص بموهبتك.

هز حمزة رأسه مبتسمًا وسارا قليلًا دون أن يتبادلا الحديث قبل أن يسألها: - نيروز، هل تعرفين السيد صديق؟

بنبرة تحمل الكثير من الضجر أجابته:

- نعم أعرفه جيدًا أكثر من أي شخص يعرفه.

- هل أنتما مقربان لهذه الدرجة؟

- بل بعيدان لهذه الدرجة، أنا لا أفضله أبدًا بل أكاد أبغضه، إنه داعر وعربيد، لا يسلك طريقًا إلا وفي نهايته غرض له، وهذا ما لا يعرفه الناس عنه.

توقف حمزة ماسكًا ذراعها ليوقفها.

- إذن، كيف عرفتِ ما لا يعرفه الناس؟

- لقد رأيته يخرج من بيت فقير في الجنوب تقطنه عجوز وحفيدها اليتيم وأرملة ابنها، يضاجعها مقابل المال أو من أجل سلطانه في المدينة.

- وكيف عرفتِ ذلك؟

- إنه أعزب وهذا البيت لا يملك شيئًا سوى جسد تلك الزوجة المترملة ولا شأن له به غير ذلك.

نظر لها حمزة مستنكرًا:

- ليست ببينة، لم أعتد الحكم على أحد قبل أن أعامله.

- ها قد وصلنا، إن لم يكن الوقت متأخرا لاستضفتك.

- كنت أتمنى ذلك، موعدنا غدًا لنستعد للاحتفالات.

وفي اليوم التالي فتح عابد غرفة العازفين لينبه حمزة ألا يرهق نفسه في التدريبات كي يستطيع مواصلة الغناء ليلًا ويدعوه ليشرب معه كوبًا من الحليب ويستريح قليلًا وما إن جلسا في مكان حمزة المفضل حتى بدأ عابد كلامه مشجعًا إياه وطالبًا منه بأن يبهر الجمهور في الاحتفالات كليلة أمس، فاستراح حمزة واتسع صدره بعد ضيق أصابه الليلة الفائتة، بيد أنه لم يتحدث كثيرًا عن أمره، كان يشغله أمر السيد صديق أكثر كأنه وجد فيه شيئًا يجذب فضوله كما يجذبه عذب القوافي ورنين الألحان، ورآه بعين تلميذ يبجل معلمه ويريد أن يستقي منه جل تعاليمه وما في صدره من أسرار، كان صديق هو الحكيم الذي حذره منه ألا يتبع طريقته، لكن حمزة لم يستطع كبح فضوله ورأى فيه الطريقة التي يتمنى أن يحيا بها فسأل عابد: - أتعرف السيد صديق جيدًا؟

- نعم يا فتى ما الأمر؟

- من هو إذًا؟

بضحكة خفيفة أجاب عابد:

- أقدر حيرتك، إنه بالفعل رجل محير وعلى الرغم من الصداقة التي تجمعنا إلا أنني لا أعرف عنه سوى القليل، إنه حقًا داهية.

- بربك بأي معنى لهذه الكلمة تقصده؟

- إنه داهية لا يستطيع المرء تفسير أفعاله، إن تاريخه يغلفه الغموض، لقد جاء إلى سالمة قبل أن تكون مدينة، هو مَن صنعها وجعل ملوكها ملوكًا، هو مَن فعل كل شيء تراه هنا من جمال أو قبح، أتدري يا فتى، كنا نسكر معًا ذات مرة أو بالأحرى أسكر أنا، أما هو فلو شرب كل ما في هذه الحانات من نبيذ لن يثمل أبدًا، فسألته قائلًا أنت مَن بنيت سالمة وحدك وصنعت كل ما فيها من جمال، لماذا بنيت الجنوب بذلك القبح؟ كان رده لترى ما بقي من سالمة

جميلًا، لم أفهم وقتها وراودتني الشكوك وجلست أتساءل أليست سالمة بذلك الجمال حقًا؟ أهي خدعة؟ أسحرنا هذا الداهية؟ لم أجد تفسيرًا يقطع شكوكي فعزمت ألا أعامله إلا بظواهره فقط، فلقد قال لي ذات مرة: صديقي عابد رجل بمثل عقلك لا يجب أن يعرف الكثير حتى لا تتملكه الكآبة وها قد أخذت بنصيحته.

ابتسم حمزة بسمة خفيفة ثم قال:

- لكنه نصحني بأن أعرف الكثير.

- لعله رأى فيك رجلًا أرجح مني عقلًا، أو أنه يحبني كثيرًا ولا يريد لي الكآبة.

ثم ضحك بصوت عالٍ واستكمل:

- وأنا أرجح الظن الأول.

بضحكة باهته لمسايرة الحديث سأله حمزة مجددًا: - سيد عابد، ماذا قصدت بقولك أنه مَن فعل كل شيء في سالمة؟ وكيف جعل ملوكها ملوكًا؟

اتكأ عابد على كرسيه ونظر إلى الميدان أمامه وقد انتابته حالة من الشجن ثم تنهد طويلًا قبل أن يجيب: - يا فتى إن الشرح يطول، ولكني سأوجز، إن السيد صديق ليس عربيًا ولا يدري أحد من أي بلد هو، لقد جاء إلى قبيلة بني سالمة منذ حوالي عشرين عامًا ومكث بيننا بضعة شهور ضيفًا لشيخ القبيلة، فلقد جاء يقصده، ثم رحل عن القبيلة بصحبة الأمير هشام شقيق شيخ القبيلة وانقطعت أخبارهما عامًا أو اثنين، في ذلك الوقت راجت الكثير من الشائعات أنهما قتلا أو أنه قد غدر بالأمير هشام وقتله وأخذ ماله، والحقيقة أننا لم نكن نعلم لماذا رحلا أصلًا عن القبيلة فاجتهدنا في تأويل الأمر حتى عادا على رأس قافلة من السفن معبأة عن بكرة أبيها بأشياء لم نعرفها من قبل ولا ندري فيما تستخدم، ثم جمعنا شيخ القبيلة وأعلمنا بأمور لم نفهمها، بل إن كل ما فهمناه أن حياتنا ستتغير برمتها للأفضل فرحبنا وشرع الرجال الذين جاءوا معه يباشرون أعمالهم في بناء وتشييد أسوار المدينة مزامنة مع بناء المدينة نفسها تحت توجيهات السيد صديق الأبيض، هكذا دعوناه لأن لباسه دائمًا أبيض لا يتسخ رغم نشاطه طوال اليوم، وبعد بضعة أيام من بدء البناء أعلن الشيخ نفسه ملكًا وأخاه قائدًا للجيش الذي شرعوا في نظمه وقتها، وبعد عام كانت حوانيت السوق جاهزة فأعطوها لمَن يريد بثمن زهيد ولكن لم يستأجرها الكثير، فلقد كنا إلى ذلك الحين نعيش على صيد اللؤلؤ والأسماك والتجارات البسيطة ويرى الناس في ذلك راحة ومكسبًا وفيرًا، الأمر الذي لم يعجب السيد صديق؛ فلقد كان هو مَن يخطط كل شيء لكنه لم يظهر أبدًا للجمهور ولم يخاطبهم فلقد ترك ذلك الأمر للملك لأن الناس تحبه، حتى جاء

يوم خشي الملك أن يخاطب الناس لما رآه من حرج فيما طلبه منه السيد صديق بأن يقوله على الناس وعلمت بعد ذلك أن الملك قال له لقد عشت طوال عمري محبوبًا لا أريد أن يكرهني الناس، ولأول مرة يظهر فيها السيد صديق ليخاطبنا كانت هذه المرة، وقف شامخًا في ساحة الميدان ليوضح لنا خطته وأنه يريد لنا الخير ويخبرنا بأن سالمة ستكون مقصدًا للغرباء والتجار وكل حالم برغد العيش، وستكون المدينة الأكثر رواجًا، لقد كانت خطبة عظيمة أسر بها قلوب الناس وجعلهم واقفين أمامه كأنه ملك عظيم ذو سطوة وسلطان، حتى وصل إلى الجزء الأخير وهو ترسيخ القوانين الجديدة، ليكون من أهمها ثلاثة قوانين، أولهم ألا يُسأل غريب من أين جاء، لم يشغل ذلك القانون بال أحد ولم نستطع تفسير لما وُضع في الأساس، وثانيهم هو منع حمل السلاح داخل أسوار سالمة، الأمر الذي أثار غضب البعض لكنه ليس كثالثهم وهو منع صيد اللؤلؤ نهائيًا ومن ضُبط متلبسًا بصيده لا بيعه أو شرائه يسجن ثلاث سنوات، لقد أفجع ذلك القانون الناس وجعل غالبيتهم يكرهون السيد صديق، حتى أن شابًا حاول قتله فيما بعد، لكن محاولته باءت بالفشل، وبعد أن أنهى خطبته أمر بكتابة القوانين على رقعة جلد كبيرة وتثبيتها في الميدان ثم نقلوها إلى البوابة الغربية ونسخوا منها عدة نسخ علقت في أماكن تجمع الناس كالسوق والميدان وأيضًا البوابات حتى لا يخالف القوانين أي غريب، ألم تلاحظها عند دخولك سالمة؟

- لا، لقد دخلتها ليلًا.

نظر عابد ناحية الشمس فوقف من مجلسه:

- لقد سرق الوقتَ حديثنا، هيا لتستعد لليلتك الثانية، لكن أعطني أولًا تصريح دخولك للمدينة حتى أتمكن من صك تصريح عملك.

- أمن الضروري ذلك؟

- ما بالك يا فتى، لا بد من ذلك حتى تستطيع العمل معي، إنها القوانين هنا، لا بد أن تقرأ القوانين بعناية كي لا ترهقني بسؤالك وتجفو عينيك نظرة الاستغراب هذه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

ظل حمزة في نفس مكانه حتى بعد أن انصرف عابد، منبهرًا بما سمعه عن ماضي سالمة وعما فعله ذلك الداهية الذى يدعى صديق الأبيض، انتابته حالة من النشوة كأنه شرب قنينة نبيذ من خاصة صديق وحده، وما أجمل نسيم الخريف وحفيف الأشجار وتمايل أوشحة الأعمدة حول البئر حين تشاركوا جميعًا في ذلك الانسجام، إلا أن كلام نيروز عن السيد صديق كان يقلقه، كان يخالجه شعور بأنها قد تكون صادقة، فهو لم يسمع إلا اثنين نيروز تمقته وعابد يفضله لكنه لا يعرف ماهيته بيد أن قلب حمزة كان يميل لنصرة صديق دونما يلمس أي برهان لذلك، روحه فقط هي تلك التي تطوف حوله آسرة له بحكمته وفيض حضوره وحديثه الذي يستميل كل من سمعه.

ظل منتظرًا يتلفت لعله يجد السيد صديق هنا أوهناك لكنه لم يأتِ طوال ليلتين، حتى الليلة السابقة للاحتفالات حين جاءه عابد وأعطاه تصريح العمل ولم يرجع له تصريح الدخول حسب قوانين سالمة وانصرف في عجلة من أمره ليباشر تجهيز نصيب حانته من الاحتفالات، فكل الحانات تكون شاغرة طوال ليالي الاحتفال على عكس ساحة الميدان التي تستضيف العروض وتمتلئ بالجموع وتبقى الحانات لتجهيز المشروبات والمأكولات لرواد تلك الليالي.

لم تكن هناك عروض في تلك الليلة فالكل في الميدان يعمل جاهدًا لإنجاز دوره المكلف به، عدا حمزه كان واقفًا يراقب بعد أن انصرف كل العازفين والراقصات ليستريحوا استعدادًا للغد، حتى رأى السيد صديق في الميدان يباشر ويوجه ويأمر ويراقب كل هين وكل عظيم، وبينما السيد صديق منشغلًا بأدق التفاصيل لمح حمزة واقفًا بمقربة من باب الحانة فابتسم له وذهب إليه وسأله عن حاله وعن عمله ومستجدات أموره ثم هنأه على غنائه في أول ليلة عمل له، وأخبره أن انشغاله بسبب الاحتفالات هو ما منعه ألا يستمتع بغنائه كل ليلة، فأحس حمزة براحة في صدره وأخبره أنه سوف يغني في الحفل الافتتاحي فما كان على السيد صديق إلا تشجيعه ليكون الأفضل، لأن النجاح في احتفالات الترفيه هو النجاح الحقيقي، وطلب منه أن ينال قسطًا جيدًا من النوم حتى يتجلى صوته ويكون بمزاج جيد قادر على إطراب أكبر تجمع شهدته جلسة غناء، واستأذنه بالانصراف لمباشرة عمله.

ذهب حمزة إلى غرفته واستلقى على فراشه ناظرًا لسقفها البالي الذي يعج بالحشرات مسترجعًا أحداث يومه متحمسًا للغد بعدما بث كلام السيد صديق في صدره بريقًا من الأمل وصفو الحياة، مستحضرًا صورة نيروز تارة وعابد تارة أخرى حتى ترسو الأطياف على صورة السيد صديق منبهرًا بشخصيته

وحكمته آملا أن تجمعهما صداقة طويلة ليتعلم منه بعضًا مما في خبايا نفسه، ظل على تلك الحالة ينتابه الأرق حتى لمعت أشعة الشمس داخل الغرفة عبر ثقوب نافذتها وشقوق حوائطها، فغلبه النعاس حينها إلا أن كابوسه لم يشأ يريحه هذه المرة وذكره بماض غفل عنه لأيام قليلة، كأن القدر يقول له دعك من صفو الحياة واهتم بماضيك، وحين فز من نومه مفزوعًا رن في أذنه صوت الشيخ حزام قائلًا مهما صمد ما بنى حمزة وتزخرف فهو مبني على ريح ساكنة ستعتي بغتة في أي وقت.

وما إن أفاق قليلًا حتى أمسك قربة ماء وشربها لآخرها كأنه في سفر طويل لم يذق منه سوى مرارة الترحال، سيطر عليه مزاج سيء جدًا على غير المطلوب وظل طيف جدته يراود مخيلته طوال طريقه للحانة، وما إن وصل وسط المدينة حتى أعاد أدراجه إلى الجنوب ولكن ليست لغرفته هذه المرة إنما للبوابة الجنوبية وسأل عن عامر فلم يجده، ووجد حارسًا آخر، وكان قد سمعه في أول ليلة غناء له فسلم عليه بحرارة وأبدى إعجابه بغنائه وعزفه، الأمر الذي لم يزحزح مزاج حمزة عن تلك البقعة الداكنة في ذاكرته بيد أنه استغل إعجاب الحارس به وسأله عن السيف وأنه يريد الاطمئنان عليه فرحب وفتح له الخزانة وجعله يلقي نظرة عليه، وحين رأى قيصر سيفه تحسسه برفق وغاص في بحر من الذكريات الجميلة واضطرام من الألم واغرورقت عيناه حتى كسا بياضهما حمرة فوق حمرة الأرق، ثم رده مكانه وانصرف إلى الحانة، جلس في نفس مكانه كئيب الطلة دامي العينين شاحب الوجه في مزاج حاد يرثى له حتى جاءت نيروز ورأته بتلك الحالة فجلست جواره تسأله عما به من شحوب لكن بلا جدوى، ذكراه الأليمة قد طفت فوق وجهه وأسرت كل جوانحه وتملكت من طباعه الوديعة فزجت به إلى جحيم من ضيق الصدر والكآبة، وبعد إلحاح منها بأن تعرف ما به ورفض منه، صرخ بها:

- أنا بخير، لا أريد أن يشاركني مجلسي أحد.

فزعت نيروز في مقعدها ووقفت مضطربة فلأول مرة تراه بهذه العصبية وحدة الطباع ثم وضعت يدها على كأحد:

- حمزة أرجوك كن جيدًا لا من أجلك بل لأجلي، فأنا لا أريد أن أراك مضجرًا، سأتركك فقط لأنك طلبت وليس لأني أريد ذلك.

كان الناس قد بدأوا التوافد على الميدان المحفوف بالحراس فكل شيء كان مجهزًا بعناية كأنه عرس لشيخ أعظم القبائل، قناديل الأعمدة أشعلت مبكرًا وفرشت أرضية الميدان ببسط فاخرة على شكل جلسات منفصلة يتوسط كل جلسة إناء حديدي رص به قطع من الخشب مجهزة لاضطرام النيران بها،

وعلى جانب الميدان شيدت منصة مرتفعة عن الأرض قرابة ثلاثة أذرع وأمام البئر شيدت أخرى ترتفع قرابة ذراعين، أما الجهة الأخرى من البئر فكانت شاغرة من الجلسات ممتلئة بعمال الحانات يجهزون أطباق الفاكهة ومواقد الشواء، أما النبيذ وباقي المشروبات فكانت تجهز داخل الحانات الشاغرة من روادها.

كان رواد الاحتفالات يختلفون عما رآهم حمزة في الحانة، فقد كانوا من أجناس مختلفة وجوههم وملابسهم وثقافاتهم مختلفة، فقد لا تجد جلسة تشبه مجاورتها، أما رواد الحانات من أهل المدينة فلقد كانوا جميعًا في الميدان بيد أنهم لم يشغلوا إلا قرابة ثلثه وفجأة بدأت مجموعة من الفرق المكونة من عازفين وراقصات ومطربين يتوافدون من شرق المدينة وغربها، اضطرب حمزة لحظة رآهم، لم يكن يدري أن الاحتفالات يشارك فيها فرق من خارج المدينة حتى وضع عابد يده على كتفه كالتي وضعت في الغار في خاتمة كابوسه ففزع حمزة مرتبكًا نائيًا بمزاجه إلى أبعد مقام من الكآبة ونظر إلى عابد نظرة يملأها الضجر الذي وصل جله وقت أخبره بأن يستعد فهو مَن سيفتتح الحفل، وقبل أن ينطق بكلمة سمع ضجيجًا يأتي من أحد الشوارع الجانبية ورأى حشودًا من الحراس يلجون الميدان ويفسحون الطريق لهودجين مذهبين يُحمل كل منهما على أكتاف عشرين من العبيد أنزلوهما أمام المنصة المشيدة جانب الميدان، وعلى المنصة وقف رجل بلباس فاخر ومطرز يخطب في الجموع:

- نتشرف بافتتاح الاحتفال السابع لاحتفالات الترفيه التي طالما تميزت مدينتنا العظيمة بها، ويشرفنا بالحضور جلالة الملك شريف النسب الملك مجد القبائل بن عمرو السالمي ابن مؤسس مدينتنا العظيم وحامي أراضيها، ويشاركه بالحضور السيد صديق الأبيض نائبه ووزيره، ويشرفنا أيضًا قائد جيشنا العظيم الأمير قصي بن هشام السالمي والوصية عليه أرملة القائد السابق طاب في ثراه الأميرة حور.

بدأ الميدان يعج بصوت صليل سيوف الحراس ترحيبًا بالملك ومن معه ثم نزل من الهودج الأول الملك مجد مرتديًا ثيابًا سوداء وتاجًا ذهبيًا مرصعًا بأحجار كريمة، متوسط القامة حنطي البشرة في بدايات عقده الرابع من العمر حليق اللحية ذو شارب أسود مستقيم الجانبين، نزل برفقة السيد صديق واعتليا المنصة وجلسا على كرسيين من أربعة كراسي مذهبة ومزخرفة بنقوش لطيور وسيوف وحيوانات ضارية، ثم نزل من الهودج الثاني الأمير قصي وحده مرتديًا ثيابًا وتاجًا كالملك لكنها تناسب طفلًا في السابعة من عمره، ثم اعتلى المنصة وجلس بجوار السيد صديق، هجع صليل السيوف قليلًا لتخرج الأميرة حور من هودجها، وما إن وضعت قدمها على أرض الميدان

حتى عاد ضجيج السيوف أكثر وأكثر، فهربت الطيور من أعشاشها المحيطة بالميدان ثم اعتلت المنصة متجهة لكرسيها، وقبل أن تجلس رفعت يدها لتحيي الجموع، كانت امرأة في بدايات عقدها الخامس ذات بشرة بيضاء صافية كالعاج لا يشوبها ندبة ولا شامة ينسدل شعرها الأسود الكثيف الناعم على كتفها الأيسر العاري حتى صدرها، ممشوق قوامها يوشح جسدها المفعم بالأنوثة عدة أوشحة بيضاء وحمراء تعطى لتفاصيل جسدها الصاخب فرصة للبروز والوضوح إلى الملأ، متبرجة على عكس الأخريات من بنات جنسها في المدينة، يبدو على طلتها امتلاكها لشخصية قوية وحضور طاغ، يشع من عينيها البنيتين الواسعتين ومن ثغرها القرمزي شبق يكبل مرتميه سلطانها، فلا هي سهلة المنال بل مستحيلة، ولا هي تكف عن تبرجها وتفننها في لفت الأنظار لها كمهرة جامحة في ثوب أنثى، علا تصفيق الجموع لها الأمر الذي أدخل على صدر الملك بعضًا من الحرج وأحس أنه أقل أهمية منها، لكنها لم تكن المرة الأولى التي تسحب منه البساط.

في ذلك الوقت خرجت فرقة حانة عابد واعتلت المنصة أمام البئر، كانوا جميعهم حاضرين عدا حمزة وقف بعيدًا حتى لوحت له نيروز بأن يقترب فاقترب على استحياء ورهبة، الأمر الذي لفت انتباه الحضور ثم وقف قليلًا وقلبه يكاد يقفز من بين أضلعه ونظر في عيني نيروز ثم أدار النظر بعيدًا حيث صديق، ثم جلس في المكان المخصص للمطرب ما بين العازفين والراقصات وبدأ بالعزف إلا أن يديه كانتا ترتعشان لكن الأمر سار على نحو جيد فرفاقه كانوا محترفين العزف ويداوون تخبطه، حتى انتهت المقدمة الموسيقية وحان دوره بالغناء فلم ينطق بكلمة فارتبك العازفون وتعثرت خطوات نيروز، مما جعل سعد عازف الناي الذي لم يكن يضاهيه أحد في العزف عليه أن يتجلى بصوت نايه ويحل محل المطرب عزفًا لا غناءً، تصبب حمزة عرقًا خافضًا رأسه يخشى مواجهة الجموع وبالكاد يعزف الجزء المخصص له بشكل سيء، حتى انتهى عرضهم الأول وقبل أن يبدأ الثاني هرع مسرعًا متجهًا إلى الحانة وهو يسمع في أذنيه كما يسمع الحالم صوت خافت لتصفيق لا ينم على أي إعجاب بل كواجب مفروض احترامًا للمراسم، دخل إلى الحانة الشاغرة وجلس بالقرب من منصتها، أحس أنه وحيد وأن الجميع قد تخلوا عنه بعدما تهافتوا عليه في أول يوم عمل له، ليس الجميع فقط بل كل ما حوله، جدران الحانة، نسيم الخريف، حتى عوده وقنينة النبيذ وما حولها من أقداح كلها هجرته وبقي وحيدًا بعد أن أَنِسَ لياليها، كأنها الدنيا وقد اختصرت بأيام قليلة، كل شيء تخلى عنه كطير في رحلة سقوطه أرضًا بعد أن ارتفع وعلا فأصابه سهم متربص كأنه استكثر عليه أن يرى الأفق البعيد الواسع وحده، نظر إلى كل ما حوله في الحانة وقد اغرورقت عيناه وسيطر على أذنيه ضجيج من الصمت والسكون كأنها صُمَّت، فجلس وأسند ذراعيه

إلى الطاولة وخفض رأسه بينهما واجهش بالبكاء، ما لبث إلا قليلًا حتى أحس بيد توضع على كتفه فرفع رأسه ونظر من وراء دموعه ليجد السيد صديق يجلس بجواره ويسند ذراعه الأخرى إلى الطاولة وقد اعتلى وجهه بسمة خفيفة ودودة.

- ما زلت صغيرًا يا فتى، هون على نفسك، لست أول مَن يخفق ولن تكون الأخير، ما زال هناك متسع من العمر ومن ليال الاحتفالات، لمَ كل هذا العناء يا حمزة؟

فنظر حمزة في عينيه وقد همت دموعه ونحب بصوت خفيض، فضم السيد صديق رأسه إلى كتفه وربت عليها:

- يا بني لا يستحق الأمر كل هذا، لا ترهق نفسك ولا تجلدها، أعدك أن كل شيء سيكون جيدًا وأنك ستضحك حين أذكرك بهذا اليوم الجميل.

ورفع رأسه ونظر في عيني حمزة.

- يا بني إن كان للنجاح لذة فالفضل كله يرجع للفشل، إن لم يوجد نقيض فليس للشيء من قيمة، إن لم يوجد الداء، فلا قيمة لدوائه، أما عن وجود الداء فذلك لقيمته فلا شيء يخلق هباءً وكذلك الإخفاق، إن ذلك الغصن الجميل المتباهي بأوراقه وثماره إن كسر فلربما يصنع منه رمح لصياد ماهر أو عود لعازف متمكن، ولربما يؤول به مصيره إلى موقد حطب لتدفئة مياه غسل لعاهرة بعدما باعت نفسها في ليلة شتاء باردة، إن كنت قد أخفقت اليوم فهذا لا يعني أننا سنحتفل بذكرى وفاتك في مثله من كل عام، أمت يا فتى؟ لا بد للحياة أن تكتمل، لن تموت وتترك يومًا واحدًا لك في هذه الدنيا، وإلى ذلك اليوم لا بد أن تُسَخّر كل معضلة تمر بها لصالحك ولا تجعل نفسك كغصن تكسره الرياح ويذهب لمدفأة عاهرة، كن صلبًا ويابسًا حتى إن كُسرت كن رمحًا إياك أن تترك نفسك لموقد الحطب.

فابتسم حمزة بسمة خفيفة وتلألأت الدموع في عينيه الواسعتين، فتبسم له السيد صديق ولطم خده برفق:

- أخرتني عن الحفل، سأتركك الآن، لنلتق غدًا ونبدأ مشوار غصن لن يكون مصيره النيران.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

تسلل حمزة خارج الميدان دون أن يراه أحد وذهب إلى غرفته وأسلم جسده إلى الفراش آملا ألا ينغص الكابوس نومه هذه المرة وغاص في نوم عميق، وحين استيقظ في يومه التالي ذهب إلى الحانة ليسأل أحد العمال عن منزل السيد صديق فدله عليه، وقبل أن يصل كان السيد صديق جالسًا بفناء منزله على شاطئ البحر قبل الغروب بقليل يستمتع برائحة البحر ونسماته العليلة ويشاهد أسراب الطيور العائدة إلى أعشاشها على أشجار الفناء، وكم كان التناغم جميلًا ومتناسقًا بين أصوات الطيور وحفيف الأشجار وهدير موجات البحر المنبعث من الشرق وطقطقة الخشب في موقد بجواره وبين احتسائه لنبيذه العتيق الخاص الذي يُحضَر خصيصًا له من خارج البلاد، فحتى قصر الملك لا يحتوي على مثل هذه النوعية من النبيذ، كان في مزاج هادئ وجيد متكئًا على أريكة ملقيًا الدنيا إلى أول موجة لتأخذها إلى قاع البحر بلا رجعة، وكأنه مالك أغنام بأرض لا تطأها أقدام الذئاب، وبينما كان هائمًا في صومعته متعاليًا عن بشر ودنيا كحبوب وحجر رحى سمع نقرًا على باب منزله المطل على أبعد شوارع المدينة عن الميدان، فقام بنفسه فهو لا يملك خدمًا ولا عبيدًا ودخل إلى المنزل الذي يحول بين الفناء والباب ليجد حمزة هو الطارق وفي يده قنينة نبيذ فاخر متداول في المدينة فابتسم له ورحب به واصطحبه إلى الفناء متجاوزين المنزل بأكمله ثم أعطاه حمزة قنينة النبيذ:

- أتمنى أن تلقى استحسانك فأنا لا أعرف الجيد من الرديء من النبيذ.

تناولها السيد صديق رافعًا حاجبيه وأومأ برأسه دليلًا على الإعجاب بيد أنه لا يستحسنه أصلًا:

- نعم، إنه من نوع فاخر بل من أغلى الأنواع هنا، شكرًا حمزة على كرمك وحسن لياقتك، حقًا إنها نوع مفضل لي.

فابتسم حمزة وهو يستكشف الفناء ومنظر البحر الذي يراه لأول مرة بسالمة.

- جميل جدًا منزلك يا سيد صديق والأجمل هو ذلك الفناء المنعزل عن المدينة.

- إنه تحت تصرفك في أي وقت يا بني.

كان الطقس في أبهى حالاته بيد أن الشروق يكون أعظم في هذا المكان حينما تطل عليه الشمس من بين موجات البحر الهادئة صباحًا، أحضر السيد صديق بعض الأطباق المغطاة بجواره على الأريكة ووضعها على الطاولة أمامه.

- كنت قد أبلغت عابد بأن يحضر لي ضأنًا لشوائه، لكني ألغيت طلبي فلقد أحببت أن تشاركني بعض أكلاتي المفضلة فأنا لا آكل اللحوم، هذا بعض المحار من البحر اصطدته لك ولي.

- إنه شرف لي أن أشاركك طعامك سيدي.

وبينما يتناولان الطعام هم حمزة بسؤاله:

- أتعيش وحدك؟

- نعم.

- ألا تشعر بالوحدة؟ لماذا لا يوجد عندك خدم أو عبيد؟ فأنت ذو شأن في المدينة.

- الوحدة قد أصابتني جلها منذ زمن بعيد ومن أثر فيضها عليّ لم أعد أشعر بها، أما عن الخدم والعبيد فسيكونون غرباء لا أعرفهم، سيجيئون من أجل المال لا رفقتي، يا بني إن الوحدة خير من جليس لا تحمل له أي مشاعر.

- والأصدقاء!

ببسمة خفيفة نظر صديق بعيني حمزة معجبًا بفضوله كالأب حين يبتسم من فضول طفله.

- كان لدي صديق مقرب جدًا رغم اختلافنا في الطباع، وكم شاركني مجلسي هذا وشاركته مجلسه، لكنه ليس موجودًا الآن، أما عن الباقين فعلى فترات متباعدة أجلس مع بعضهم في حانة عابد والبعض الآخر في قصر الملك لكن لا يشاركني أحد مجلسي هذا.

فأحس حمزة ببعض من المدح الغير مباشر وتشجع لسؤاله أكثر وأكثر:

- إذن فأنا محظوظ أن أشاركك مجلسك، لكن لماذا من بين كل صداقاتك ومعارفك الكثيرة لم يشاركك مجلسك إلا شخص واحد فقط؟

تجرع السيد صديق بعضًا من النبيذ الذي أحضره حمزة وأسند مرفقه إلى الطاولة.

- ليس كل مَن اقترب من الملك حاشية، هناك كلاب صيد يدلك الملك رؤوسهم لكنها تظل كلابًا دون ذنب لها، أما الخطايا على مَن استكلبوا وهم بشر، إياك يا حمزة أن تجعل كل من تحدثت معه يومًا صديقًا، فالصديق إن لم تحسن اختياره غار جرحه إن جرح، بل إن الجرح لا يأتي إلا من الأحبة والأصدقاء، فالأعداء والأشخاص العاديون وإن جافوك فلن يخيب أملك فيهم ولن تنتظر منهم كرمًا أو معروفًا، إن كان لك عشرة أصدقاء فلربما يخيب

أملك في سبعة أما إن كان لك ثلاثة فإن خاب ظنك في اثنين فلن يضنيك ذلك في شيء، الجرح لا يأتي إلا من قريب يا بني.

كان حمزة شاردًا بذهنه مثبتًا عينيه على موجات البحر من خلف سور الفناء المنخفض حتى بعد انتهاء السيد صديق من كلامه ظل شاردًا لبضع ثوان وكان الحديث قد أعاده لماضٍ آلمته ذكراه وأزاح تفكيره واهتمامه بعيدًا عن عرابه وقدوته حتى استعاد انتباهه.

- صدقت سيدي إن جرح الأقرباء دامٍ، لن يلتئم أبدًا. «وتملكه الصمت».

كان السيد صديق بعد أن أنهى كلامه قد ثبت ناظريه على وجه حمزة ليرصد انفعاله وانطباعه الذي ساد وجهه، وبحكمة رجل داهية كصديق وضع يده على طرف خيط رفيع من ماضي حمزة الدفين الذي تناثر طرفه من وراء صدره ليكسو ملامح وجهه.

وبعد أن ساد الصمت مجلسهما للحظات ضحك السيد صديق بصوت منخفض ليلفت انتباه حمزة ويروح عنه.

- لا تخف يا بني، ليست ثمة حرب بين المرء وأصدقائه، أنا فقط أحذرك – وضع يده على كتفه – هيا قم لنقف معًا على شاطئ البحر.

فتبسم له حمزة بسمة تغلف حزنًا دفينًا في صدره وقاما إلى شاطئ البحر بعد أن أخذ حمزة كوبًا من حليب أعده له السيد صديق الذي أخذ قنينة نبيذه العتيق معه، وقفا قليلًا يستنشقان نسيم الشرق المحمل برائحة البحر الذي يبعث في الروح بعضًا من الأمل وصفو الحياة منسجمين مع صوت هدير موجاته المتضاربة كأنها تتزاحم وتتسابق نحو الشاطئ لتداعب أقدامهما.

كان كل ما تراه عيونهما حلكة ليل لا قمر فيه، إلا خيط رفيع بالكاد يرى في سماء صافية تزخرفها ملايين النجوم والأفلاك، وضوء قنديل الفناء يكشف لكل واحد منهما نصف وجه الآخر، حتى بدأ حمزة في استكمال أسئلته التي لم يكن يجرؤ أحدًا أن يسألها للسيد صديق إلا هو:

- أما عن الخدم والعبيد والأصدقاء فلقد عرفت أمرهم، لكن اسمح لي سيدي الحياة ليست خدم وأصدقاء فقط، أليست لك عائلة؟

فتبسم السيد صديق لجرأته وأسئلته كأنه أحب أن يكشف له أسراره ويبوح له بما كتمه عن الناس ليزيح عن صدره ثقلًا ما ضاق به دهرًا.

- كان لي زوجة منذ زمن بعيد لكن لم يستمر زواجنا طويلًا لننجب، ذهبت روحها الطاهرة إلى من أهداني بها وتركتني في لظى وحدتي فشردت بي أشرعتها إلى ما أنا عليه الآن.

- أزهدت النساء من بعدها؟ إن فعلت، فمعك كل الحق فمن الصعب أن تجد امرأة يُبكى عليها، إن غدر النساء ذبح لا جرح.

نظر السيد صديق إلى الظلام الراسخ فوق موجات البحر.

- كلا يا بني إن النساء نبع ماء لسفرك الطويل بصحراء قاحلة، وموقد حطب بليل قارس البرودة لا غطاء فيه ولا ساتر، إن النساء أقمار بليل سرمدي لكنني حزت الأفلاك كلها معها، فكيف أرضى بقمر أو اثنين.

يا بني إن الذي قتل نفسه ما كان ماقتًا للعيش، إلا أنه لم يجد الحياة التي كان يصبو إليها وهجر الصبر فباع نفسه لموت رأى فيه راحة لألم نفسه ونهاية لقصة فشله ملقيها على كاهل أقدار لم يجبر عليها، كافرًا بقدرة الإله الواحد، مخلاً بسنة الدنيا التي رتبها خالقها أو ربما اتبع إلهًا مزيفًا فآل به إلى مصير تبغضه كل نفس دبت فيها الحياة يومًا على تلك البسيطة، وها أنا من بعدها لم أجد لتيه أشرعتي مَن تكون مرسًا أو ميناء، كانت كبلدي كوطني فهجرته بعد أن هجرتني.

أدار وجهه ناحية حمزة فكشف ضوء القنديل عن نصفه الذي بدا عليه خليط من الشجن والحنين وبعض من الحزن المخزون وراء صدره وكأنه اشترك وحمزة في حزن يقبع في نفس كل منهما يتسرب إلى الوجه كلما نُبشت ذكراه.

- وما هي بلادك سيد صديق؟

فنظر له وعيناه يملأها الشجن:

- إن بلادي بوجهها ضياء كأن الشمس التي تشرق عليها كل صباح ليست كالتي تشرق على باقي وجوه العباد، شمس أشعتها من فضة توشحت بوشاح نُسج من ذهب وماء من نهر عظيم يسري كشريان خلف بناء هرمي لا يقل جمالًا ولا عظمة عن صباح أول ما أرى فيه هو زرقة عيون زوجتي الملائكية وأصابعها الحانية تداعب خدي لأفيق- تنهد طويلًا وكأنه يدفع بهمه ليزيحه بعيدًا عن صدره وضحك - لكنك بسؤالك هذا تخالف قوانين سالمة، هيا لندخل إلى المنزل فالنسيم أصبح باردًا عليك.

اصطحب حمزة إلى المنزل ثم دخلا غرفة في نهاية ممر ضيق وما إن دخل حمزة الغرفة حتى انتابه شعور بالذهول والانبهار فكل ما رأته عيناه في ذلك العالم شيء وما يراه في تلك اللحظة شيء مختلف تمامًا وكأنه بصومعة ساحر أو حبر، عالم منعزل عن هذه الدنيا له قوانينه وأساليب عيشه ومظاهر جمال خاصة، كأنها مقبرة جهزت بعناية لعالم برزخي لن يكون دفينها في حاجة لشيء دونها أو أنها انعكاس لما تحتويه نفس ذلك الرجل الداهية، مئات

من المخطوطات المرتبة بعناية والمكتوبة على جلود وأوراق برموز ورسوم لم يفهمها حمزة وكأنها طلاسم عفاريت، وعشرات من الأحجار المنحوتة بأشكال مختلفة لبشر وحيوانات وطيور بصور غريبة ليست على هيئتها الحقيقية، وكؤوس تحتوي على سوائل ومساحيق بألوان مختلفة، وبعض من المعادن الغريبة والأحجار الكريمة، وآلة موسيقية وترية عملاقة كأنها قد جيء بها من زمن بعيد قبل أن يبدأ التاريخ حكايته وكأنها الناجية الوحيدة على سفينة نوح، وطيور جارحة وحيوانات ضارية وزواحف محنطة، لا ركن في الغرفة إلا ويحتوي شيئًا يراه حمزة لأول مرة في حياته، ظل مبحلقًا ومبرقًا عينيه اللتين يغشيهما الانبهار، حتى وقعتا على تمثال يقبع في زاوية الغرفة لأنثى بهيئتها البشرية وحجمها الطبيعي طاغية الجمال والرقة ينبعث من تمثالها روح حقيقية وفتنة ملائكية، نُقش على أسفله رسوم لم يفهمها حمزة حتى ربت السيد صديق على كتفه قارئًا النقوش:

- «عندما كان يسري في عروقها دم كان للحياة معنًا آخر... (آلارا)»، إنها زوجتي.

- ألهذا القدر تحترم النساء؟

- تُحترم وتُبجل وتُعشق.

أشار السيد صديق إلى كل ما في الغرفة شاهرًا يده باتساع صدره وطول ذراعه:

- كل ما في هذه الغرفة تحت تصرفك يا بني، استق منها العلم ما شئت فلم تطأ هذه الغرفة قدم ثالثة دون قدميّ من يوم أن بنيتها، إن كل ذرة في هذه الغرفة تحمل في طياتها كنزًا، أحسن استغلاله يا حمزة.

- بربك سيدي، لمَ تفعل معي كل هذا؟ فتحت لي مجلسك وأخبرتني أسرارك وأدخلتني صومعتك الخاصة، لمَ أنا دون الناس؟

شرد السيد صديق بعينيه الزرقاوين ناحية تمثال نُحت على هيئة رأس طفل.

- أنت خيط رفيع يُبقى على رمق ذكرى لنفسي القديمة، مر الوقت يسرقني عمرًا وآمالًا وذكرى أوشكت أنساها حتى ذكرتني بها، لطالما حلمت بابن مثلك تحمله أحشاء (آلارا) لكن يبدو أن الأيام مهما قست ومهما توارى الفرح عن محياها تجود دائمًا بالأفضل - تنهد طويلًا ولطمه برفق مداعبًا- لننهِ أولًا ما علينا فعله في الحفل الختامي ثم نلتفت لأمر هذه الغرفة وما فيها، لكن أريدك أن تعدني بشيء.

- بأي شيء؟

- دائمًا سأحدثك عن الغاية النهائية وأنت افعلها بطريقتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

كانت ليلة بديعة الجمال والبهاء أحس فيها حمزة بنشوة منتصر يرفع رايات جيشه للريح تنشرها، أو لقيط بأول صباح له في كنف أبيه، حين نفحه نسيم البحر البارد وهو يلوح بيده للسيد صديق أمام باب منزله ويسير في شوارع البلدة منسجمًا وقد أسكره ما لاقاه في مجلس عَرَابه من دفء واطمئنان، مارًا بالبئر وكأنه يراها أجمل وأبهى وأزقة الجنوب التي لم يشعر بضيقها هذه المرة ولا برائحة الروث فيها والجًا إلى غرفته البديعة تلك الليلة، ملقيًا جسده على فراشه غارقًا في نوم عميق بعد أن اتفقا أنه سيكتب وينغم ما سيغنيه في الحفل الختامي.

صار يستيقظ كل صباح ولا يغادر غرفته كعادته مسرعًا، بل ظل منكبًا لعدة أيام على عوده ومحبرته ورقعة الجلد التي أعطاه إياها السيد صديق، يكتب وينغم ما يروق له دون أن يطلع عليه أحد كما طلب منه السيد صديق، وفي عصر آخر يوم قبل الحفل الختامي سمع نقرًا على الباب ففتحه ليجد نيروز واقفة أمامه ناظرة له وعيناها الزيتونتان يملأهما خليط من الشوق والعتب.

- حسبتك رحلت عن المدينة أيها الجافي.

خفض عينيه خجلًا كخذلان عاشق أتعب محبوبته سفرًا وبُعدًا بلا جدوى، ثم أشار بيده ناحية الغرفة لتدخل، وما إن دخلت حتى بدأ في شرح موقفه وأنه كان خجولًا من مواجهتهم بعد ما حدث بالحفل الافتتاحي وأنه هو السبب في ظهورهم بمظهر غير لائق، وأخبرها عما كان يفعل طوال هذه الفترة أما هي فلم يكن يشغل بالها ما حدث في الحفل وظلت تعاتبه عن مجافاته لها، فاعتذر عما بدا منه لكنها تمنعت عن الصفح متغنجة، وماست متدللـة متجهة نحو الباب للانصراف، فقام وحال بينها وبين الباب ماسكًا ذراعها لمصالحتها.

- نظيرًا لما فعلت ستكونين أول من يسمع ما أقدمه في الحفل.

وأجلسها على فراشه وجلس على وسادة في زاوية الغرفة ماسكًا عوده وبدأ يعزف ويغنى.

كانت أغنية حزينة لا تصلح للرقص أو التمايل المعتاد عليه في الحفلات، فقاطعته أنها يمكنها أن تشاركه عرضه رقصًا فلا أحد يجيد الرقص كنيروز فرحب بالفكرة بعدما كان يرفضها وظلا يتمرنان عليها حتى خيم الظلام على المدينة وبعد أن انتهيا وصارا مستعدين لتقديمها للجمهور، حذرته من أغنيته كونها حزينة ولا تناسب جو الاحتفالات، لكنه أصر أن يقدمها دون أي تغيير فيها، وحين جادلته في أمرها رد عليها قائلًا:

- الأمر يستحق المجازفة إما أن أصنع لنفسي مجدًا لا يضاهيه أحد أو أمحو ذكرى صوت رن في آذان الناس يومًا.

انصرفا إلى خارج الغرفة متجهين إلى الميدان، وما إن رأى حمزة الجموع من بعيد حتى أحس بالرهبة قليلًا محدثًا نفسه» غدًا سيعج الميدان احتفالًا بي» وودعها وعاد إلى غرفته ليخلد إلى النوم مبكرًا كما نصحه صديق قبل الليلة الأولى من الاحتفالات.

وفي اليوم التالي استيقظ مبكرًا وظل عاكفًا على عوده يتمرن حتى حان وقت انصرافه إلى الحانة، فقام وشذب لحيته ولبس ثوبًا جديدًا كان قد اشتراه ليرتديه في الحفل الافتتاحي لكنه لم يفعل لما كان فيه من ضيق صدر وكآبة، وأخذ عوده وذهب إلى الحانة ليجد عابد جالسًا أمام بابها بجوار مكان حمزة المعتاد، وما إن رأى حمزة حتى تبسم في وجهه بود ومزاح.

- لا تحاول استمالتي لن يجدي كلامك نفعًا، ألم تشتاق لوجه عابد الملائكي؟

ضحك حمزة ضحكة عالية فأشار له عابد بالجلوس.

- لقد أخبرني السيد صديق أنك ستقدم شيئًا جديدًا وأنا أثق بك يا حمزة، إن الحفل الختامي يكون أكثر ازدحامًا من الافتتاحي، سيحضره الملك وحاشيته والأميرة حور والأمير قصي، وعلمت أن الاميرة درة بنت الأميرة حور ستكون موجودة - وضع كفه على كتف حمزة مازحًا - هي لا تقل عن أمها جمالًا يا فتى، آه لو نجحت في استمالة قلبها، لربما تكون ملك سالمة يومًا ما – ثم قام من مجلسه وانحنى رافعًا يده تبجيلًا- وأنحني لجلالتك عند مرورك بحانتي المتواضعة.

ضحك حمزة بصوت مرتفع.

- ليس الأمر ببعيد سيد عابد.

نظر له عابد رافعًا حاجبه وجلس على كرسيه.

- آمل أن تهتم بنا وقتها سيدي الملك – ثم ألقى بكيس من النقود على الطاولة - تفضل سيدي الملك هذا أجر أيام لم تعمل بها، لحسن حظك أن ليال الاحتفالات وإن لم تعمل فيها لا بد أن تحصل على أجرك كاملًا - بنبرة صوت يقترب إلى البكاء مازحًا - وهذا أمر يذبحني يا فتى.

امتلأت ساحة الميدان بالرواد كانوا أكثر ممن كان يوم الحفل الافتتاحي، وقبل غروب الشمس بقليل صعد المنصة نفس الرجل الذي افتتح الليلة الأولى خاطبًا في الناس ذاكرًا كم أن الملك وحاشيته وقائد الجيش والأميرة حور مهتمون أن يشاركوهم حفل الختام ليودعوا الحضور على أن يلتقوا في نفس

الموعد العام المقبل، وأن سالمة جاهزة لاستقبالهم في أي وقت، شاكرًا السيد صديق على مجهوده وقيادته الحكيمة لشئون البلاد كما رحب بالأميرة درة التي لم تحضر أي ليلة هذا الموسم لكنها حريصة على مشاركتهم الابتهاج والاحتفال، ثم صعدوا إلى المنصة بنفس ترتيب صعودهم في الحفل الافتتاحي إلا أن الأميرة درة قد سبقت أمها في الصعود إلى المنصة، كانت لا تقل جمالًا عنها بيد أنها فتاة في الرابعة عشر من عمرها جمالها مختلط ممزوج ما بين الشقرة والسمار بشرتها ليست ببياض أمها بل إنها ذات بشرة قمحية وشعر أشقر مموج قليلًا وعينين خضراوين، مزيج ما بين حضارتين كانت هي، حين تلاقى فيها نسلا أبيها وأمها، سحرت الجموع حين اعتلت المنصة بلباسها المتبرج لكن سحرها لم يدم طويلًا بعد أن لحقتها أمها الطاغية في حضورها راخصة الجلد مياسة الخطوة التي يملأ الشبق عيونها، بدأ الحفل فرق غريبة عن المدينة وتعالت الهتافات والآهات بعد انتهاء كل عرض حتى امتلأت الساحة أكثر وأكثر، لم يبقَ فرد في سالمة إلا وكان في ساحة الميدان، متزاحمين متلاحمين هم ومن جاءوا من خارج المدينة.

كانت كل العروض راقصة تملأها البهجة وأجسام الراقصات المتمايلة بألبسة شفافة وكتوف وصدور شبة مكشوفة إلى الملأ، حتى جاء دور العرض الأخير وكان من نصيب حمزة، تهيأ جيدًا بعد أن احتسى مشروبًا دافئًا من الشعير أعده عابد بنفسه، وصعد منصة العروض وحده واثقًا الخطى أزال العمال كل الكراسي الموجودة عن المنصة عدا كرسيه فاتسعت المنصة لاستقباله، وقف أمام الجموع شامخًا صدره وهامته ناظرًا لهم بكل فخر وعزة ناسيًا ما قد حدث له في ذلك الموضع من قبل، بيد أنه لم ينسَه تمامًا بل احتفظ بالقليل ليذكره بما عليه فعله هذه المرة كأنه ثأر بينه وبين الفشل، كأنه عاد إلى ذلك المكان لينتقم من إحساس قد جثم فوق صدره وآن أوان زهقه ذلك إن لم يتم اغتياله كليًا في تلك الليلة، لا مناص له دون ذلك.

جلس ساندًا عوده على فخذه وبدأ في عزف لحن حزين، هدأت أصوات الجموع وانتبه الجميع ملقين بكل تركيزهم إلى الآذان لا العيون، حتى بدأ حمزة في الغناء، كان شعر حزين جدًا يحكي مأساة شاب غدرت به الأيام وزجت به إلى مصير لا يعلمه ولا يدري عاقبة ما ينتظره، ظل يندب حظه ويبكي على حاله حتى بدأ في تغير نبرة اللحن وأصبح يضفي بريقًا من الأمل ذاكرًا بشعره أنه لن ينتظر من الدنيا سياطًا أكثر تدمي كتفيه وتحدب ظهره، وفي ذلك الوقت اعتلت نيروز المنصة موشحة بعباءة سوداء لا تكشف منها شيئًا، أزاحتها على المنصة بجوار حمزة لا أمامه كما اعتادت الراقصات أن تقف بكل العروض، تمايلت بحركات هادئة خالية من أي مجون أو إغراء بل أنها كانت حركات تعبر عن حال ما ينشده حمزة في شعره ولحنه، لم يهلل الجمهور ولم تزيح نيروز اهتمامهم أو تركيزهم بعيدًا عن حمزة بل كانا ثنائيًا

مبدعًا يكملا بعضهما ومزيجًا مبهجًا ومليئًا بالشجن، كان لا يُسمع من صوت الجموع إلا بعض من الأنات والآهات الخافتة، حتى أوشك حمزة من نهاية عرضه فسارت خطوات نيروز الراقصة خلف حمزة وطوقت عنقه بذراعيها، كانت حركة متزامنة مع إنهاء حمزة لأغنيته وعرضه تدربا عليها كثيرًا، وما إن أنزل حمزة عوده عن فخذه حتى انفجر الجمهور بالصياح والهتاف بشكل لم يشهده مجلس أو ساحة غناء من قبل، كان هتافًا عظيمًا وصل إلى طيور أشجار فناء صديق وأيقظهم هاربين باتجاه البحر، علا صليل سيوف الحراس على غير العادة فلم يعتادوا على مشاركة الجمهور احتفالهم أو تصفيقهم، كان الاحتفال بنجاح حمزة واستحسان الناس لأغنيته مهيبًا صاخبًا، فوقف حمزة عن كرسيه ناظرًا إلى صديق الجالس بعيدًا على منصة الملك ثم نظر في عيني نيروز اللتين تفيضان بالبهجة وابتسم لها غير مصدق ما يحدث فابتسمت له وأومأت برأسها وطوقته بذراعيها في حضن استمر قليلًا، وحينها زاد هتاف الجمهور ضعفه وقام السيد صديق من مجلسه مصفقًا لهما في نفس الوقت الذي قامت فيه الأميرة حور مصفقة هي الأخرى، فقام الملك وجميع من على المنصة مصفقين ومشاركين الجمع احتفالهم وفرحهم بصنيع حمزة وباغتياله لفشله دون رحمة أو شفقة.

انتهز السيد صديق انشغال مَن على المنصة في تفاعلهم مع الحدث واقترب من الأميرة حور وهمس لها بأمر ما مسرعًا.

كان نجاح حمزة في تلك الليلة انتصارًا شخصيًا له وتغييرًا لمسار حياته الذي انحدر إلى أدناه، ثم هَمّ بالصعود مرة أخرى إلا أنه في غير طريقه المنشود ولكن صعودًا وإن كان في جانب غير الذي ينشده لهو خير من انحدار أو استقرار في القاع.

وبينما كانت منصة الغناء مفعمة بالفرح والاحتفال بالنجاح الذي حاز عليه حمزة من قبله وقبل نيروز كان لمنصة الملك رؤية مختلفة، فقد أحسنت الأميرة حور استغلال نجاح حمزة سياسيًا لتكسب جمهور سالمة أكثر، فبعد أن جلس كل مَن على المنصة ظلت واقفة وانتظرت حتى هدأ الهتاف وسمحت الأجواء بأن يكون صوتها مسموعًا، رفعت ذراعها لإلقاء كلمة على الجمهور بعد أن نظرت خلسة للسيد صديق بابتسامة شكر، وبعد أن مدحت العرض وغناء حمزة استأذنت عابد والملك بأن حمزة سيكون له جلسة غناء خاصة كل أسبوع في قصرها مقتصرة عليها وعلى ضيوفها وأنها تتكفل بمصاريف ليلة كاملة مطلع كل هلال في حانة عابد تكون مجانية لرواد الحانة على أن يكون حمزة من يحيي هذه الليلة، وقف جميع سكان سالمة الموجودون في الميدان هاتفين باسم الأميرة حور ذلك الأمر الذي أثار غضب الملك فأدار النظر ناحية السيد صديق لينقذه من ذلك الحرج فاتكأ السيد

صديق على كرسيه ناحية الملك وهمس له في أذنه ليخبره ما عليه فعله ثم قام رافعًا يده ليهدأ الجموع وأخبرهم بأن الملك لديه كلمة فوقف الملك مخبرهم بأن حرصًا منه على عدم إجهاد مطربهم المفضل ولكي يكون دائمًا مبدعًا في غناءه لهم، فقد أنعم عليه بأن يكون مطرب القصر الملكي على أن يلتقي بهم مطلع كل هلال كما طلبت زوجة عمه الأميرة حور، مقدمًا لهم في كل حفل راقصة جديدة من جواري قصره لتزيد على كل حفل تجديدًا وعلى أن يكون حمزة متاحًا لجلسات الأميرة حور في أي وقت تطلبه.

وكما فعلوا عوام سالمة من الهتاف للأميرة حور فعلوا للملك، فما للعوام شأن ولا مبتغى غير مصالحهم الشخصية غير مهتمين ولا آبهين بحجر رحى السياسة التي تدور بين القصرين التي قد يكونون حصاها يومًا.

فرح جميع من بسالمة بما قاله الملك والأميرة حور إلا نيروز التي نظرت بشجن عميق في عيني حمزة اللامعتين الفرحتين قائلة بأسى شديد:

- إذًا لن أراك كل ليلة يا حمزة!

فخفض نظره إلى عينيها وضغط على خصرها بذراعه المطوقة له:

- كوني مطربًا للقصر لا يمنعني أن أكون من رواد الحانة.

فخفضت رأسها وأسندتها على صدره كطفلة أرهقها اللعب ونامت في حضن خليلها.

أما عن عابد فلم ينزعج حتى وإن بدا الأمر فيه خسارة له لما كان سيدره عليه حمزة من أرباح فهو يعرف جيدًا كيف سيجني ضعف تلك الأرباح من حفلات الأميرة حور.

خوى الميدان من الجموع وانصرف كل إلى بيته من سكان سالمة، أما الغرباء فمنهم من شد الرحال إلى بلده بعد أن ازدحموا عند خزائن الحراس لاسترداد أسلحتهم، ومنهم من انتظر ليستريح ليلة أو أكثر قبل السفر وليتجول وليتبضع من سالمة فمن المعتاد أن غالبية رواد الاحتفالات في العام لا يأتون في العام الذي يليه بسبب طول السفر.

أما حمزة وزملائه فقد احتفلوا قليلًا في الحانة على نفقته الشخصية، ولأول مرة يشرب حمزة النبيذ إرضاءً لزملائه فثمل قليلًا وخرج إلى البئر، كان الميدان واسعًا أمامه اتساع صدره تلك الليلة لم يبق فيه إلا بعض عمال الحانات يغلقون أبوابها تأهبًا للانصراف قبل أن يقطع عليه عزلته سعد عازف الناي واضعًا يده على كتفه من الخلف:

- يبدو أن الحظ ابتسم إليك يا صاحبي.

فالتفت إليه حمزة واضعًا يده هو الآخر على كتفه:

- شكرًا سعد لما فعلت في الحفل الافتتاحي حين أنقذتنا من تلعثمي.

- لا تشكرني يا صاحبي، إن العازف وإن عظم فهو في خدمة المطرب دائمًا - مشيرًا إلى البئر- إنك مثلها في عزلة دائمة لا تأبه بأحد لكن الجميع يلتفون حولها ثم يهجرونها كل ليلة وحيدة حتى يجئ موعد الاحتفالات كل عام فيلتفون حولها دون انقطاع مزيحين عنها عزلتها وأنين لياليها القاتمة، وها أنت يا صاحبي قد حان في عمرك موعد الاحتفالات.

وصمتا برهة ثم ربت على كتف حمزة:

- إن المجد لحمزة.

قالها وانصرف متواريًا خلف ظلال الأبنية.

نظر حمزة إلى البئر مترنحًا ثملًا، فرن منها صوت الشيخ حزام « إن كان لك قضية إياك أن تتخلى عنها فإن فعلت سيتلاشى قيصر شيئًا فشيئًا حتى يبدو كمسخ مشوه المعالم والملامح».

حاول حمزة أن يفتح عينيه أكثر مستنشقًا النسيم ليفيق من سكره، لكن صوت الشيخ حزام لم ينقطع « مهما صمد ما بنى حمزة وتزخرف فهو مبني على ريح ساكنة ستعتي بغتة في أي وقت «، ظل الصوت يرن في أذنه من كل شيء يدير نظره إليه، من البئر، من قناديل الأعمدة، من الأوشحة الملونة، حتى زاد سكره وظن أن جانًا يطارده فهام على وجهه في طرقات المدينة، كلما اقترب من شيء وجد صوت الشيخ حزام يخرج منه، حتى وصل إلى شمال المدينة، ظل يتلفت حوله في هلع ظانًا أنه في متاهة كبيرة وأن الجان يتربصون به فسقط أرضًا مغشيًا عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

عارية في مسبحها الصغير وقد نثرت شعرها على صفحة مائه، وأثدائها النضرة تتدلى عليها، تجلس السيدة حور في جناحها الخاص بقصرها واثنتان من الجواري يصببن الماء الدافئ والحليب والزيوت التي يعدها مسبقًا السيد صديق للعناية ببشرتها على بعض الأزهار الفواحة، مسترخية مغمضة عينيها هائمة بخيالها تسترجع ذكريات صباها بين مروج البحيرة الخضراء وسط أزهار حقول والدها، تعدو وخليلها بين الأشجار وجداول المياه حتى يتعبان فيفترشان العشب وتنظر بابتسامة حب في عينيه اللتين تشبهان عيني حمزة الواسعتين، لم تكن عيناه فقط بل إن كل ملامحه كأنها نسخت منه إلا أن صديقها كان صبيًا لم تنبت لحيته بعد، حتى قطعت عليها حبل ذكراها جارية لتخبرها أن حمزة قد عاد إليه وعيه.

انتبهت لها فاتحة عينيها ووقفت من مسبحها وقد التصق بجسدها العاجي بعض الأزهار، فساعدتها إحدى الجواري في ارتداء ثوب حريري وجلست على أريكة بجوار المسبح وأسندت قدميها على طاولة قصيرة أمامها وأشارت للجواري أن أدخلوا حمزة، وحين دخل تفاجأ بها وبثوبها العاري فخفض ناظريه أرضًا فقامت من مجلسها وأمسكت يده مرحبة به وأجلسته جوارها على الأريكة.

- عساك أصبحت بخير، لقد أحضرك الحراس إلى هنا فقط لأهميتك في المدينة لا لأنك خالفت القوانين.

فنظر إليها مضطربًا وما إن بادر في الدفاع عن نفسه حتى أسكتته واضعة إصبعها على شفتيه برقة.

- لا تشرح، أعلم أنك كنت فاقدًا للوعي ولو رآك حراس الملك ما كان ليشغل بالهم ما تقول، إن للثمل حدود ويبدو أنك قد أكثرت من الخمر الليلة الماضية برفقة حبيبتك وشريكة عرضك.

- حبيبتي؟ مَن تقصدين؟ نيروز؟، لا إننا فقط أصدقاء وزملاء في الحانة.

- قد يكون هذا شعورك نحوها لكنها بادٍ هواها وإن أنكرته، هنيئًا لك مكانتك الجديدة في القصر ولا تنسَ موعدنا كل أسبوع.

أومأ برأسه موافقًا.

- ألست فرحًا؟ أراك شاحبًا، أهذا كله من أثر الثمالة؟

- لقد احتفلت فرحًا الليلة الماضية لكني حين فكرت فيما وصلت إليه وأني صرت معروفًا قلقت، فرغم ما حزت عليه إلا أنني خسرت مزايا أن أكون

غريبًا متواريًا بين الناس لا أحد يهتم لأمري، أصبحت يعد الناس خطاي.

- تعجبني حكمتك رغم سنك الصغير، إلا أنك لا بد وأن تخوض ما لم تقدم عليه يومًا - مقتربة في مجلسها منه، واضعة كفها على ركبته، ناظرة في عينيه بلهفة - يا صديقي، لا يمكنك أن ترى الحريق من بعيد، أنت فقط ترى الدخان، لا بد أن تقترب أكثر لتراه جيدًا، لكن احذر أن تلتهمك النيران.

ارتبك حمزة قليلًا واعتدل في مجلسه مظهرًا أنه لا يبالي بكفها ولا بنظرتها.

- أنا لست خائفًا كما تظنين لكني قلق من القصر وقوانينه التي لم أعتدها.

فنظرت في عينيه بمجون وأطالت النظر كأنها تصوبه بوهج من الفتنة والإغراء ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة، حينها تصبب حمزة عرقًا، فضحكت ضحكة عالية رنانة ووقفت من مجلسها ومدت يدها له.

- تعال معي لأريك هديتي التي لم أفصح عنها أمام الجمهور في الليلة الماضية.

وأخذته من يده وخرجا من باب خاص بجانب الغرفة إلى حديقة فرعية بالقصر ليجد إحدى الجواري منتظرة ممسكة جوادًا أسود ذا شعر مموج فأشارت إليه.

- هل أعجبك؟

فترك يدها وذهب إلى الجواد فرحًا ودلك غرته بكفه ناظرًا لها.

- إن شعره كشعر نيروز.

- آمل أن يحبك مثلها، الآن تستطيع أخذه إلى قصر الملك فمن المؤكد أنك ستقيم هناك ولا تنسَ موعدنا سأنتظرك كما تنتظر الصحراء الغيث.

- لا مزيد من الجواري.

قالها السيد صديق باردًا الأعصاب متكئًا في مجلسه ناظرًا بحدة إلى الملك مجد ومرافقه الخاص نائل الذي بادر بالرد على السيد صديق:

- لكننا جنينا مكاسب عظيمة من احتفالات الترفيه هذا العام.

فنظر له السيد صديق نظرة حادة.

- لم نجنيه لأنفسنا بل لسالمة - ونظر بعيني مجد بنفس الحدة - وإن كنت تريد جواري جديدة فلتكن على نفقتك الشخصية وليست من أموال المدينة، إن ما جنيناه بعدما يأخذ القصران نصيبهما سيكون مخصصًا كله للبدء في الفنار الذي سأشرع العمل به الأيام المقبلة.

فخفض الملك مجد عينيه أرضًا، وحين هم نائل بالرد نظر له الملك قائلًا اصمت يا نائل ثم وجه كلامه للسيد صديق.

- لك ما تراه سيد صديق لكني أخشى أن تضيع أموالنا على ذلك الفنار بلا جدوى.

ففز السيد صديق من مجلسه صارخًا به وقد استشاط غضبًا:

- لقد أعطاني أبوك ثلاثة أرباع ماله وذهبه ولم يشك أن ما أفعله قد يذهب سدى.

ففزا من مجلسهما مقتربين بخطى سريعة من السيد صديق ثم أمسك الملك يده.

- عذرًا، لم أقصد ما جال بخاطرك، لكني كنت أريد أن أعرف الفائدة من بناء الفنار.

فنظر لهما بغلظة صارخًا بهما:

- وهل كنتما تعرفان شيئًا حينما بنيت سالمة، لقد استغرقت وأبوك وعمك في بناء القصرين أعوامًا ولم نمس أموال سالمة أبدًا ولم نفكر بذلك وتأتي أنت الآن تريد إلغاء الفنار لتشتري الجواري على نفقة الناس، لتستلم زمام الأمور إذن ولتحكم المدينة منفردًا إن شئت.

فأحكم مجد قبضته على يد السيد صديق.

- عذرًا سيدي ومعلمي وهل أنا مثل أبي وعمي، أنا ما زلت أتعلم فلتسامحني على ما صدر مني.

- حسنًا يا بني - ناظرًا إلى نائل موجهًا كلامه للملك- ولكن فلتبق كلاب الصيد في البرية لا شأن لها بمجالس الملوك.

وما إن أنهى السيد صديق حديثه إلا ودخل عليهم أحد الحراس مقاطعًا ليخبره أن رماح راعي الجواري السجين قد هرب فصرخ الملك بغضب شديد في الحارس

- كيف حدث ذلك؟ لا بد أن تجدوه.

خرج السيد صديق على الفور للبحث في ذلك الأمر وتركه ونائل الذي ربت على كتف الملك.

- دعك من ذلك السجين سيدي الملك، لن يستطيع تجاوز البوابات، أما عن أمر وزيرك لا بد أنه سيأتي يوم مناسب وترجع إلى حوزتك ملك أبيك كاملًا.

- فلتذهب إلى تاجرنا المفضل لتخبره بأن الملك مجد يريد الجواري مأسورات لا إماء.

- فلتتمنى جلالتك ولينفذ خادمك المطيع.

ثم انحنى وانصرف.

كان السيد صديق في غرفته الخاصة بالقصر يبحث في أمر هروب رماح راعي الجواري، فأخبره أحد الحراس بأن حمزة بالخارج، فأذن له بالدخول، ثم أمر باستدعاء حارس السجن في الليلة الماضية، وبينما ينتظر وصل حمزة أولًا فقام من مجلسه مبتسمًا ومرحبًا به واحتضنه.

- أحسنت صنعًا يا بني، الآن وقد صرت مرتاح البال بعيدًا عن غرفتك البالية تستطيع تحصيل العلم أم أنني مخطئ فيما فعلت؟

- أكانت خطة؟ أأنت مَن طلبت من الملك أن ينعم عليّ بهذا المنصب؟

- خطة قد قلت، ولست مَن نفذها كاملة، فقط جعلتك طيفًا أمام عيني حور ومجد لتكريمك تقربًا لأهالي سالمة.

وبينما يتبادلان الحديث طرق أحد الحراس الباب مدخلًا علاء الحارس المذنب في حادثة الهروب فأجلسه السيد صديق وقام بطرح عدة أسئلة عليه بوجود حمزة، أين كنت الليلة الماضية؟ كيف فتح باب السجن؟ لماذا تركت نوبة حراستك؟ فلم يجب عليها جميعًا، فأمر السيد صديق بسجنه ثلاثة أشهر جزاءً لإهماله على أن يعود لعمله بعد تأدية فترة عقوبته، صرفه واستدعى أحد الحراس لمرافقة حمزة إلى غرفته التي ستجهز من جديد بعد أن كانت غرفة راعي الجواري الهارب الذي ظل منصبه شاغرًا حتى الآن فلقد سجن منذ أقل من شهر.

ظل حمزة في غرفته الجديدة حتى خيم الليل على المدينة وانصرف السيد صديق إلى منزله ونام جميع من بالقصر إلا حراس الليل، فخرج حمزة من غرفته إلى الفناء.

كانت ليلة هادئة يخالج هدوءها الكآبة، أمسك البحر نسيمه فلم يأتِ ليداعب أوراق الشجر وبخلت الزهور بعبيرها وخيم الصمت على المدينة كلها، فحتى الميدان كان خاويًا، وأوشحة أعمدة البئر كأوراق الشجر الذابلة هجعت ساكنة دون أن تداعب حمائم الميدان، لا شيء في هذه الليلة سوى نعيق البوم والغربان وأقدام الحراس وبكاء الأطفال وأنين المهمومين في مضاجعهم وضحكات الساهرات في أحضان خلانهن ونظرات حمزة إلى القمر الذي هم في هذه الليلة لبداية رحلة عودته إلى طور الهلال، ذلك الأمر القاسي المحتم عليه الخضوع لِه كلما اكتمل وسحر الخلائق، الأمر الذي راود فكر حمزة

وتملك منه جاعلًا خفقان قلبه يعلو وفكره يشرد وكآبته تزيد سائلًا نفسه هل يا ترى ما أنا فيه الآن اكتمالًا، ولو أنه كذلك متى ستكون بداية الأفول؟

ليلتان والمدينة على تلك الحالة من الرتابة لا تجارة لا حانات لا شيء سوى بحث حراس الجيش عن رماح، أما حراس الملك فلم يكن ذلك الأمر من اختصاصهم فهم لحراسة وتأمين الملك فقط دون المدينة حتى أنهم لا يحرسون البوابات التي ظلت مغلقة بعد خروج الغرباء لمدة خمس ليال لم يخرج منها أحد طوالها إلا شخصين الأول كان نائل بتصريح من الملك نفسه متجهًا لتاجر الجواري لإحضار ما أمره به الملك، والثاني كان رماح بعد ثلاث ليال من هروبه تحت تأمين وحراسة حراس البوابة الشمالية الخاصة بقصر الأميرة حور.

خلال تلك الأيام كان السيد صديق يأتي إلى القصر متأخرًا ويخرج منه قبل غروب الشمس، حد أنه لم يصادف حمزة إلا مرتين فقط في خمسة أيام، إلا أن حمزة كان يخرج ليلًا إلى الحانة التي كانت قد باشرت عملها ليلتقي بأصدقائه ويبتعد عن حالة الكآبة التي سيطرت عليه بعد دخوله القصر.

إلى أن استدعاه الملك لمجلسه هو والسيد صديق مرحبًا به مادحًا غنائه في الليلة الختامية للاحتفالات ثم أخبره بأن يكون مستعدًا دائمًا فلربما تطرأ على فكره في أي ليلة أن يقيم جلسة غناء ورقص مطمئنه بأنه سيجعل أحد الحراس يعلمه قبلها بوقت كافٍ وأن يجهز له بعض الأغاني الراقصة فهناك جواري جديدة ستأتي للقصر ويريد أن يختبر مواهبهن في الرقص.

كان حمزة طوال وقوفه أمام الملك والسيد صديق منقبضًا صدره غير مرتاح شاعرًا بأنه لم يعد ملكًا لنفسه وأن ما يحسده عليه الناس من نعيم صار فيه هو في الواقع نقمة عليه وضجر يجوب حنايا صدره، ذلك الأمر الذي لم يمر على السيد صديق دون أن يلاحظه ويقرأه في عيونه وملامحه، فبعد أن سمح الملك لحمزة بالانصراف لحقه السيد صديق وأخبره بأنه سينتظره الليلة في منزله، وحين خيم الظلام على المدينة وكانت الحانات في ذروة رواجها اليومي كان السيد صديق وحمزة يجلسان في فناء منزله أمام البحر الذي جاد بنسيمه بكرم تلك الليلة موادعًا المدينة بعد أن هجرها الليالي الماضية، الأمر الذي جعل مزاجهما صافيًا وصدرهما باردًا بفضل نسيم البحر الهائج وهدير أمواجه المداعبة للآذان وحلكة الليل ونجومه المنثورة المرصعة لعبائته السوداء، وبعد أن أعد السيد صديق الحليب لحمزة وصب لنفسه كأسًا من نبيذه الخاص سأله:

- لماذا أراك غير منسجم في القصر؟

- خائف من اكتمال القمر.

- أتخاف العودة لطور الهلال؟

- كيف عرفت أني أتحدث عن نفسي؟

- وهل نتحدث عن أحد غيرك؟ أحين تكون حكيمًا تراوغني أنا بحديثك؟

- عذرًا سيدي، لكني حقًا خائف مما وصلت له وأرى أني اجتزت أمورًا لم أكن مؤهلًا لها وكان لا بد أن أتعلم الكثير قبل أن أوضع في ذلك المقام وأظن أن هذا سبب ما أشعر به من ضجر وعدم ارتياح وأنه هو الذي يصعب عليّ الأمور ولا يجعلها ممهدة، لقد صرت في مكانة أفضل فمن المفترض أن تكون كل السبل ممهدة.

- حكمتك مثالية يا بني وهذا خطأ كبير، لا بد أن تسقط من صوب عينيك كل ما هو مفترض، واسع دائمًا لما هو متاح واستغله بطريقة غير مفترضة، لو أن من المفترض جدوى ما كنا لنجلس معًا الآن بل كان كل واحد منا في مكان من المفترض أن يكون فيه، يا بني اسحق بقدميك أي أمر يأتي بعد كلمة المفترض وإياك أن تخاف يومًا من الطرق الشائكة فهي غالبًا ما تصنع الفارق في كل الأمور، لا تقلق أبدًا فإن الفخاخ لا توضع إلا على طرق ممهدة، إلا إذا كنت هاربًا يومًا فامش في طريق ممهد لأن مطاردك لن يتوقع جرأتك للسير فيه، أما عن خوفك من اجتياز أمور لم تكن مستعدًا لها فذلك أيضًا خطأ كبير، يا بني إن كان هناك حد لشيء ما فلقد خلق لكي نجتازه لا لنقف خلفه مغمضين أعيننا عما أمامه، ناظرين خلفنا إلى طول الطريق تتملكنا بلاهة أننا أتممناه، وأما عن اكتمال القمر فأنت محق في ذلك، أجل يا بني، إن لكل شيء عمر وفي كل عمر فترة من الاكتمال والتجلي، والحكيم حقًا هو مَن يسعى لتطول هذه الفترة لا ينبذها ويتخلى عنها خائفًا مما يعقبها من بهوت، إن الأفول أمر بديهي بعد كل اكتمال تراه في الزروع والثمار وعمر الإنسان وعمر البلاد العريقة حتى وإن كان يسري في قلبها نهر يهب الحياة لكل ميت، إن خشيت التعاسة لن تنعم أبدًا بفرحك وإن خشيت المرض لن تنعم أبدًا بصحتك - نظر إلى عتمة الأفق المرصع بالنجوم واحتسى جرعة من كأسه - حقًا يا بني، إن الكمال مصيره الزوال، هذه سنته وهذه هي الحياة إنها لمعضلة كبيرة والموت حلها الوحيد، لكنك لم تكتمل بعد، ما زال ينقصك الكثير، هيا بنا لأقرأ عليك أولى المخطوطات التي ستزيح ناظريك عن السراب الخادع وتقشع عنك حلكة ليل تخبط فيه الكثير وتهدي خطاك بعيدًا عن الفخاخ.

ثم أمسك حمزة من يده وأشار له أن يحمل القنديل ليضيء لهم عتمة المنزل حيث نضب زيت القنديل الداخلي، وحين وصلا باب الغرفة انشغل السيد صديق في فتح أقفاله الثلاثة وتأخر حمزة قليلًا متكئًا على باب آخر مغلق

دائمًا وأرخى ذراعه فصار لهب القنديل أقرب لذلك الباب، فنظر السيد صديق له بهلع وسحبه من ذراعه بسرعة بعيدًا عن الباب فاضطرب حمزة وخفق قلبه شاعرًا بأنه ارتكب جرمًا كبيرًا.

- ما الأمر سيدي؟

قالها حمزة مبرقًا عينيه فنظر له السيد صديق ثم نظر إلى الباب قائلًا:

- لا تقلق يا بني، لكن احذر أن يقترب اللهب من هذه الغرفة.

وأخذ من يده القنديل وتركه بعيدًا عن الباب إلا أن ضوئه يُظهره تمامًا ثم فتح الأقفال ودفع الباب إلى داخل الغرفة ليظهر ما بداخلها الأمر الذي جعل حمزة أكثر استغرابًا، سائلًا:

- ما الأمر إذًا؟ أنا لا أرى سوى أوان فخارية، أكل هذا الفزع من أجل أوان؟ أكانت تخص زوجتك لهذا تخاف عليها؟

- إن تلك الأواني تحتوي على مسحوق في حد علمي ومعرفتي لم يتوصل إليه بشرى بعد، إنه مسحوق مدمر إنه قادر أن يحرق مدينة بحجم سالمة.

- مستنكرًا - زيت؟

- ضاحكًا - لا يا بني إنه أقوى من الزيت بكثير إن حريقه لا يبقي على أثر لشيء - نظر في عيني حمزة - حمزة، لا يعلم أحد على تلك البسيطة بأمر ذلك المسحوق سوانا، إنه سر وأعلم أن صدرك مأمن له.

- لا أدري ماذا أقول، إنه سر عظيم وأن تبوح به إليّ لهو شيء أعظم بكثير، أنا أقل من أن تثق بي كل هذه الثقة.

فتبسم له السيد صديق ولطم خده برفق، فسأله حمزة:

- لكن لماذا تبقي عليه هنا؟ لماذا صنعته في الأصل؟

- صنعته خوفًا من أي جيش يغير علينا فلقد صارت سالمة مدينة كبيرة ومطمعًا للغزاة - وأشار إلى الغرفة الأخرى التي تحتوي على المخطوطات - هيا يا بني لأورثك علمي وتجربتي ولأقرأ عليك ما يغنيك عن البشر. وفي تلك الليلة اتفق الاثنان أن يلتقيا في كل ليلة ليس بها غناء أو حفل ليستقي حمزة العلم من عرابه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل التاسع

خرج حمزة بعدما أنهى درسه الأول متجهًا إلى الحانة ليجلس مع أصدقائه، إلا أنه غير وجهته بعد أن وصل إلى الميدان واتجه إلى قصر الملك، كان شاردًا الفكر في أمور كثيرة اختلطت عليه بعد نصائح السيد صديق له وبعد أن صار دارسًا لعلوم وعوالم مختلفة لم يسمع عنها من قبل، حتى وصل القصر فوجد جواده الأسود في فناء القصر فذهب إليه ليؤنس وحدته قليلًا ودلك غرته وتحسس شعره المموج وشرد بفكره مستحضرًا وجه نيروز وشعرها وتبسم قليلًا وصفا ذهنه وانتبه إلى صفو هذه الليلة ونسيمها العليل ناظرًا إلى الأفق البعيد الحالك السواد إلى نجم كان يرافق لياليه في حراسة الأغنام والإبل قبل مروره على المفرق لأول مرة.

فصهل جواده خابطًا بقدميه ليفيق من شروده ويلفت انتباهه أن ذلك المفرق الموحش ليس مكانًا للتذكر، فانتبه قيصر ناظرًا حوله ليجد نفسه على المفرق يسترجع أحداث ماضيه ونظر إلى السماء فرشقت عينيه خيوط شمس الظهيرة فخفض ناظريه إلى الأرض ليرى زواله رؤية ضبابية، ثم جلس متعبًا تحت أقدام جواده ووضع كفه على بقعة دماء تلطخ صدره واغرورقت عيناه الدامية من كثرة البكاء على فقدان اثنين كانا من أغلى مَن تبقوا له في هذه الدنيا.

ثم شرد بفكره مرة أخرى في بحر من الذكرى ليعود إلى غرفته في قصر الملك بعد أن ودع جواده وتركه في الفناء وجلس وحيدًا في غرفته يفكر فيما تلقاه تلك الليلة من السيد صديق واستلقى على فراشه ونام نومًا متقطعًا ليراوده كابوس غير الذي اعتاد عليه، ليرى جدته في صباها تسير في أسواق مدينة صاخبة وتضم لصدرها طفل رضيع تطوقه بذراعها، حتى تصل إلى شارع يطل على البحر وحين وصلت إلى الشاطئ لترى البحر لم تجد أمامها سوى سور عظيم يناطح السحاب مليء بنقوش تشبه تلك التي رآها في أغلب مخطوطات السيد صديق وعلى تمثال السيدة آلارا، يقف على قمته نسر ذهبي عملاق كثيف الريش حاد المنقار كأنه مقدمة رمح، ممسكًا بمخالبه الذهبية ثلاثة ذئاب، فرد جناحيه على اتساعهما فبدا كالنسر المنقوش على مقبض سيفه حاجبًا الشمس خلف جناحيه العملاقين لتأفل متوارية خلف ريشهما الكثيف وألقى بالذئاب جوار جدته فانقضت عليها ونهشت لحمها فسقط الطفل الرضيع أرضًا وجرح جرحًا غائرًا فوق حاجبه الأيمن ثم التفت ذلك الطفل إلى حمزة بوجه رجل كهل تكسوه التجاعيد وخيوط الشيب والدماء وعيناه الزرقاوان جاحظتان تكاد تنفجر، وصرخ فيه غاضبًا:

- ماذا تنتظر أيها الجبان؟ هيا أنقذ جدتك.

فهم حمزة ليستل سيفه فلم يجده ففزع وشعر أنه عارٍ تمامًا ولا يوجد حوله ما يداري به عورته سوى الدماء.

فضحك ذلك الرضيع ضحكة مرعبة تملأ الآذان رن صداها حتى وصل إلى السماء حيث يقف النسر الذهبي العملاق، وبنظرة اتهام وتوبيخ صرخ الطفل في حمزة:

- بئس الحفيد أنت، أضعت شرف جدتك؟

فينظر حمزة إلى جدته ليجد الذئاب قد تقاسمت جثتها، قبل أن يحلق النسر بجناحيه وينقض على حمزة ويمسكه بمخالبه ويعلو به فوق السحاب ويطير به إلى صحراء قاحلة ثم يلقي به على المفرق ويهبط بجواره قائلًا:

- ستظل هائمًا على وجهك ضائعًا، في كل مرة تمر بها على هذا المفرق ولا تختار الدرب الصحيح، ستظل هكذا فاقدًا لهويتك وإرثك إن لم تبحث عن عُشي وتجدني.

وقتها فز حمزة من نومه مفزوعًا، ونهض من فراشه مسرعًا إلى ممرات القصر، فاصطدم بأحد الحراس فسأله متلعثمًا:

- من أين يمكنني استخراج تصريح لحمل سلاح؟

- إن ذلك الأمر ليس من اختصاص قصر الملك بل من اختصاص الجيش وقصر الأميرة حور.

فركض حمزة مسرعًا إلى خارج القصر متجهًا إلى قصر الأميرة حور، كانت الشوارع خالية تمامًا، لا شيء فيها سوى نسيم الصباح البارد ودوريات الجنود والسماء المصبوغة بألوان باهتة لخيوط الشمس التي أرسلتها قبلها لتعلن عن قدومها القريب، حتى وصل إلى بوابة القصر وطلب من الحراس مقابلة الأميرة حور، فأدخلوه إلى الفناء لينتظر حتى يعلموها بأمره، فهي الآن مستغرقة في النوم.

وبعد قليل أدخلوه إلى جناحها الخاص ليجدها في استقباله.

- أأنت بخير؟ هل أصابك مكروه؟

- أريد إرث جدتي أرجوك سيدتي إنني أحتضر دونه.

- أي إرث؟

- سيف جدتي، إرثي أخذوه مني عند دخولي المدينة أريد استرجاعه، لا أستطيع النوم.

فصمتت قليلًا ونظرت في فيض الرجاء والخوف الذي في عينيه وتبسمت واقتربت منه وضمته إلى صدرها.

- لا تقلق يا صديقي.

فاجهش بالبكاء واغرورقت عيناه، وذرف دموعًا سالت على صدرها ونحب بصوت منخفض وهي تضمه وقد فُطر قلبها عليه وربتت على ظهره لتطمئنه مازحة:

- تغرقني بدموعك يا حمزة.

ثم استدعت إحدى الجواري وأخبرتها أن تعلم أحد الجنود بأن يصك تصريح حمل سلاح ويأتي به لتمهره، وجلست على أريكتها تنتظر واضعة قدميها على طاولة قصيرة أمامها وأشارت لحمزة بالجلوس فجلس بكرسي مقابلها، وصبت له كأس نبيذ وناولته إياه وصبت لنفسها آخر وجلست تتحدث معه عن أموره وأحواله في القصر، وكلما رشفت رشفة سال منها بضع قطرات على شفتيها، فيراقبها حمزة وهي تتسكع بدربها الرقيق على شفتيها الحمراوين كجمرتين وعلى عنقها الشاهق بياضه كسطوع شمس من بين الغمام مارًا من بين نهديها البارزتين كنتوئي جبلين وسط سهل منبسط، حتي تغيب عن ناظريه تحت ثيابها الشفافة، وهي ناظرة تبتسم حتى انتهى ثم ضحكت ضحكة ماجنة كفيلة بأن تهب روح الأنوثة لقطعة حجر جامدة:

- أراك الآن قد هدأت ونسيت أمر سيفك.

فابتسم وقد احمر وجهه خجلًا، حتى دخلت الجارية محضرة للصك وأعطته للأميرة حور وانصرفت فمهرته وأعطته لحمزة.

- لا تقلق أبدًا ما دمت بجانبك الآن تستطيع النوم في أي مكان يروق لك، فلقد حصلت على سيفك الذي كان ينغص عليك نومك.

فشكرها وانصرف مسرعًا ليحضر صك تسليم السيف الذي كان قد أعطاه له عامر، وامتطى جواده وذهب مسرعًا إلى البوابة الجنوبية فوجد عامر قد أنهى نوبة حراسته، واستلم سيفه من الحارس الذي كان قد جعله يلقي نظرة عليه صباح الحفل الافتتاحي، وذهب به إلى القصر قلقًا من أن يمنعه الحراس فقد يكون في دخول السيف للقصر تصريحًا جديدًا، فخبأه في ثيابه وولج مسرعًا ودسه في فراشه ولم يخبر أحدًا قط عن وجوده حتى السيد صديق نفسه خوفًا من كسر القوانين التي لا يعرف أغلبها.

قضى حمزة أيامه التي عقبت استرجاعه للسيف هادئ الأعصاب في مزاج جيد، كان يغني ليلة أو اثنين كل أسبوع في قصر الملك وليلة في قصر الأميرة حور وليلة مطلع كل هلال في الحانة، ذلك الأمر الذي أتاح له فرصة في أن

يتعلم أكثر ويستقي الحكمة على يد السيد صديق، فأحس أنه أصبح شخصًا ذا خبرة وعلم وأصبح أكثر فهمًا للأمور، وكان بعد أن يُنهي جلسته مع السيد صديق يذهب لحانة عابد لمقابلة أصدقاءه ويجلس مع نيروز التي كانت تشتاق إليه كثيرًا، أما هو رغم أنه كان يحب الجلوس والحديث معها ورغم أنها جعلت خفقان قلبه يزيد في أول مرة رآها، إلا أنه لم يشعر تجاهها بأي مشاعر غير أنها صديقة مقربة جدًا، حتى أنها قد تكون أكثر قربًا منه عن السيد صديق، ذلك الأمر الذي جعله في حيرة لا يدري لماذا هي قريبة منه إلى هذا الحد؟ وأيضًا لماذا لم تجتاح صدره مشاعر الحب تجاهها؟، وظلا هكذا هو ونيروز يراهما الجميع عاشقين إلا أن العشق تملك من قلبها لا قلبه، وفي يوم كان يجلس معها في الحانة يتبادلان الحديث ويحكي لها ما يراه في قصر الملك وفي قصر الأميرة حور وما أوجه الاختلاف بين القصرين، أحس أنه من المفترض أن يقدم لها يد العون فلقد مر حوالي خمسين يومًا منذ أن دخل القصر وأصبح في مقام أفضل، ويستطيع من خلال وجوده في القصر أن ينتشلها من متاعب العمل كل ليلة في الحانة وأن يأخذها معه للقصر ليكون أجرها أكثر وعملها أقل، إلا أنها رفضت رفضًا قاطعًا دون مبرر، وحين أصر على مساعدتها أوضحت أسباب رفضها قائلة:

- إن لي سابقة سوء مع العمل في القصور، لقد جئت مع عائلتي من بلاد ما بين النهرين منذ زمن بعيد، إلا أنني أتذكر كل شيء، قبيلتي، أبناء عمومتي، لحظة وداعنا لدارنا، دموعي التي انهمرت لحظة وداع أصدقائي، خروجنا من بلدتنا، مرورنا على النهر، حتى طول الطريق وكل البلدان التي مررنا بها، كل شيء أذكره كأنه أمام عيني الآن، ومن بعد عز وجاه لاقاه أبي في قصر أحد أمراء مدينتنا الذي غضب عليه لأنه خالفه الرأي وطرده، ذاق أبي الذل والهوان بعد أن سُلبنا جميع أموالنا ليوفر لنا قوت يومنا بعد أن اشتغل عاملًا في ميناء مدينة اللؤلؤ، وفي يوم مشئوم كأن قد أشرق صباحه ليشتت شملنا عاد أبي باكرًا من عمله شاحب الوجه لا ينطق بكلمة ودموعه تنهمر من عينيه، التففنا حوله أنا وأمي وأختي سائلين عما حل به فلم يجب، وبعد كثرة سؤالنا طلب منا أن نتركه وحده لينام وكان ذلك آخر كلامه في هذه الدنيا، عرفنا من بعد موته أن صاحب العمل قد أهانه وصفعه على وجهه وطرده أمام جميع مَن في الميناء، وبعد أن تركنا ثلاثتنا دون كسرة خبز نقتات عليها خرجت أمي للعمل وبعد عام كانت قد ادخرت بعضًا من المال لم يكن كثيرًا إلا أنه كان كثيرًا مقابل أجرها اليومي، لا أدري هل هذا مقابل عملها أم أنها باعت جسدها لنعيش أنا وأختي، فخرجت أمي مع قافلة لتشتري بضائع لتتاجر بها في المدينة بدلًا من أن تكون أجيرة، وأخذت أختي الصغيرة معها وتركتني وحيدة، وإلى الآن لا أعرف بأي أرض تكونان، نُهبت القافلة وأخذت أمي وأختي مع باقي السبايا إلى مكان لا أعلمه - تنهدت وضحكت ضحكة تملأها

الحسرة والألم - وكان أبي أيام عزّنا يُحضر لي جارية من قصر الملك لتعلمني الرقص والعزف والغناء، وكنت لا أعرف غيرهم، فخرجت أشتغل بالرقص حتى وصلت إلى قصر ملك اللؤلؤ، وذاع صيتي بأنني راقصة لا مثيل لها، وكنت أنهي عرضي في القصر وأذهب إلى بيتي، لا علاقة لي بالقصر وجواريه، وبعد فترة عرض عليّ راعي الجواري هناك أن أكون من ضمن جواري الملك وعندما رفضت أشعل ذلك شغف الملك بي وطلبني للفراش، فهربت بعد مراوغتي للحراس ليلتين وجئت إلى هنا.

عذرًا لقد أطلت عليك وقذفت الهم في صدرك لكني أردت أن أخبرك القصة كاملة كي لا تجدد عرضك وكي لا تنبش فيما مضى مرة أخرى، أعلمت لماذا أنا هكذا؟ يراني الناس بهجة تضئ في عيونهم وفي الحقيقة أنا بؤس، فقط يتنفس ويتمايل.

نظر حمزة في عيون نيروز التي اغرورقت بالدموع وضمها إلى صدره واعتذر لها عن جرح قد نبش فيه، وأحس بضيق وحسرة تجتاح ضلوعه ليس فقط تعاطفًا معها بل بكاء على حاله وماضيه الذي ذكرته قصتها به، فهو أيضًا من بعد عز وجاه صار راعيًا ثم مطاردًا.

انصرف حمزة وفي صدره فيض من المشاعر المتضاربة التي تكاد تصدر ضجيجًا يشتت أفكاره ويجعل رؤيته ضبابية للدنيا وللأمور، وعلى الرغم من أن السيد صديق قد نصحه بأنه لا يدع لأي شخص أو أي موقف سلطة لتعكير مزاجه، إلا أنه لم يستطع فقد لامست قصتها قصته ونزف جرحها فوق جرحه.

وفي اليوم التالي ذهب حمزة إلى السيد صديق كعادته بيد أنه كان مشغول الفكر ومشتتًا لدرجة أنه لم يكن يسمع صوت السيد صديق وهو يفسر له المخطوطات، الأمر الذي جعل السيد صديق يسأله عما حل به بعد أن كان قد أقبل على الحياة وراق ذهنه، فلم يجب واستبدل إجابته بسؤال:

- سيد صديق، أمن الممكن أن يكون هناك قانون ظالم ويطبق ويرضى الناس به رغم ظلمه؟

فنظر له السيد صديق باهتمام فقد صارت أسئلة حمزة غير ذي قبل:

- نعم يا بني، هناك قوانين ظالمة تمامًا وهناك نوعان منهما، الأول ظالمة لمجرد أنها تخدم ملكًا أو شخصًا يقمع العوام ويستغل سلطته وقوته، مثل فرض ضرائب كبيرة فوق طاقتهم ومقاسمتهم في أرزاقهم أو الاعتداء على أعراضهم وكرامتهم، والثاني هي قوانين تبدو أنها ظالمة ولا يوجد منها فائدة واضحة، مثلًا كمنعي لصيد اللؤلؤ، فحين فرضت هذا القانون لم يكن لي مشكلة فعلية مع صيده بل أنني رأيت في صيده تعارض مع ما أطمح في

عمله للناس، فهو سهل يدر مالًا وفيرًا دون عمل أو بناء شيء يبقى لزمن، لو أن صياد اللؤلؤ عجز عن الصيد فمن أين سيأتي بقوت يومه، فمنعته لكي أستطيع أن أبني لهم حضارة تضمن لهم مستقبلًا أفضل وحياة كريمة، لكن هذا النوع لا بد وأن يقترن بروح القانون فأنا لا استطيع إلغائه لكي لا تعم الفوضى مرة أخرى، لكني أستطيع أن أتحايل عليه.

فنظر له حمزة والشك يفيض من عينيه قائلًا:

- ولماذا لا تستطيع؟ إن كان هناك قانون يجب أن نتحايل عليه ونخرقه فمن الأحرى بنا أن نلغيه.

فتبسم له السيد صديق وكأنه يعاتبه للشك فيه:

- هناك قانون وضعته للعوام يمنع الزنا وإكراه الإناث، وآخر خاص بالقصر لأن به خادمات وجواري وحراس، فلو لم أفرضه لصار القصر مرتعًا للعربدة والزنا من الحراس، حتى ضُبط رماح مع إحدى خادمات القصر في فراشه، حَكمت عليه بالسجن لثلاث سنوات، أما هي فلم أضع قانونًا لمعاقبتها، لكن ما علمته منها أثناء التحقيق أنهما كانا عاشقين تبادلا الحب وتزوجا سرًا وكتما أمرهما خوفًا، كانا غبيين فعلًا، ذلك الأمر الذي جعلني أطلق سراح رماح.

فنظر له حمزة باستغراب ثم أردف السيد صديق:

- نعم أنا الذي هربته، هذه هي روح القانون.

- ولكنك قد ظلمت علاء بعقوبتك له لأنه أهمل في عمله.

فنظر له السيد صديق وعيناه يملأهما العتب:

- لا يا بني لم أظلمه، لقد كان علاء يسرق من خمر الملك كل يوم وكنت أعرف ذلك.

- ولماذا لم تعاقب علاء حين سرق؟

- تركته لمثل هذا الأمر، إن القصر مليء بلصوص أمهلهم لوقت مناسب ليحملوا أوزار غيرهم من المظلومين - ونظر في عيني حمزة الذي تراوده الشكوك - أراك تسأل بداخلك كيف لي أن أفعل كل هذا وأكسر القوانين دون محاسبة، لا تخجل من شكوكك يا بني، إن الشمس حين تشرق لا تشرق فوقها أخرى وحين يحجبها الغيم لا يحجبه آخر، أنا وضعت القوانين وها أنا أخرقها، إنني أهل لذلك، لم ولن أخرقها من أجل مصلحة شخصية بل أنني أنقذ بخرقي لها مظلومًا منها، وفي نفس الوقت لا يمكن أن ألغيها لأن في إلغائها ضرر وفوضى عارمة، يا بني إن المشكلة ليست في القانون ولكن في حِكمة مَن يطبقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل العاشر

كان الخريف قد أنهى أيامه لذلك العام، سالبًا الأشجار أوراقها تاركًا أغصانها العارية الذابلة لرياح الشتاء العتية التي توقظ أنين الذكريات في قلوب المتناسين، كانت ليلة شتوية باردة حالكة السواد حينما كان حمزة عائدًا إلى قصر الملك بعد حفل في قصر الأميرة حور أنهاه قبل بزوغ الفجر بقليل، كانت الشوارع خالية تمامًا من الحراس الذين تجمعوا عند البوابات ملتفين حول مواقد النيران ليشعروا بالدفء الذي هجر لياليهم، لا شيء غير صفير الرياح تعصف بالأشجار وأوشحة البئر، مخمدة لنيران القناديل، مشتتة للغبار الذي هجر الأزقة والشوارع وارتحل معها، وأوراق الشجر المستكينة بالقرب من جذورها القديمة غربتها من بعد موتها كأنها تشيعها إلى مثواها الأخير، حتى الدافئون في مضاجعهم وإن لم يتخلل برد الشتاء إلى أجسادهم، فقد قذف عواء رياحه قسوة الفراق والغربة في قلوبهم.

أما حمزة فقد عصفت به الرياح والذكريات معًا حتى وصل إلى قصر الملك ليرى قافلة استقرت في فناء القصر ويسمع جلبة وغمغمة على غير العادة في ذلك الوقت المتأخر من الليل، دخل مسرعًا إلى القصر ليجد نائل قد عاد وفي صحبته مجموعة من الجواري، فاقترب من أحد الحراس وسأله عن نائل فعرفه به الذي كان ودودًا مع حمزة في أول لقاء بينهما، ولأن وظيفة راعي الجواري لم تُشغل بعد طلب منه مساعدته في تنظيم الجواري وتسكينهن في جناحهن الخاص، كن جميعًا مسروراتٍ تعلو وجوههن ابتسامات عريضة لما صاروا إليه في قصر ملك بعد أن تنقلن من تاجر لآخر، إلا اثنتين كانتا محزونتين، إحداهما عابسة الوجه صامتة تراقب ما يحدث والأخرى لا تكف عن البكاء والنحيب؛ كانتا مسبيتين دون الباقيات اللواتي تخبطن في دروب الرق من الصغر، فلقد خُدع نائل من قبل تاجر الجواري الذي لم يحقق رغبة الملك في أن يكن جميعًا أسيرات، ما أدركه نائل بعد أن وصل القصر وأخفاه عن الجميع حتى لا يغضب الملك الذي أسند في الصباح وظيفة راعي الجواري إلى حمزة لأنه سيكون أقرب شخص لهن وسيدربهن على الرقص على أنغامه، أما نائل فقد عاد إلى وظيفته السابقة مرافق الملك وخادمه المطيع، الأمر الذي كان يشكل متاعب للسيد صديق لأن نائل رجل خبيث يدبر المكائد ويوشي للملك بأشياء من خيالاته ليزيح عن طريقة أي شخص يراه خطرًا وعائقًا لطموحه، فبادره السيد صديق بالمعاملة الحسنة ومنحه ثقته حتى اطمأن له نائل، وبعد أيام قليلة كانا يجلسان في صحبة الملك فطلب منه أن يساعده في بعض أعماله مدعيًا أنه لا يثق بأحد يحل محله إلا رجل في ذكائه وقدرته على إدارة الأمور، معللًا بكبر سنه وضعف جسده فأسند إليه مهمة السفر لشراء الفواكه والغلال للمدينة وللقصر، فقبل نائل على الفور

شاعرًا بأنه قد ارتقى إلى مكانة أفضل وأنه في يوم من الأيام سيحل محل السيد صديق في جميع أعماله، الأمر الذي سيهدد وجود السيد صديق وحين ناقشه الملك في طلب السيد صديق بعد انصرافه من مجلسهم، أخبره عن نواياه الخبيثة فرحب الملك بالأمر وشجعه على أن يتعلم كل الأمور التي يديرها السيد صديق ليصل إلى مراده في الانفراد بالحكم ولكن ليس قبل أن يصل لحل المشكلة الأكبر وهي سيطرة حور على الجيش الذي يحول بينه وبين مبتغاه، وقبل مغادرة نائل للقصر سبقه حارس حاملًا رسالة من السيد صديق لمن سيستقبل نائل لاحقًا.

جهز حمزة الجواري ودربهن جيدًا على الرقصات بعد استبعاد الحزينتين كي لا تزعجا الملك بكآبتهما، وبعد عروض استمرت خمسة أيام كان يملأ أجوائها ضحكات الجواري ومجونهن انفرج صدر إحداهما ورقت إلى أجواء الرقص والاحتفال وانسجمت معهن وبقيت التي لا تكف عن البكاء منزوية في جناح الجواري لا تشارك في شيء، كان اسمها شيراز، وبعد أن لاحظ الملك وجود وجه جديد وسط الجواري سأل حمزة عن أمرها فأخبره عنها موضحًا له أن هناك أخرى لكنها عبوسة لا تجيد الرقص ولا فائدة ترجى منها، مقترحًا عليه إرجاعها لتاجرها أو بيعها لغيره فرفض الملك موضحًا أنه من العار بيع جواريه وأن يبقي عليها حتى لو لم تجد الرقص فستكون خدنه لحبه لهذا النوع من النساء، ولكن بعد أن ينتهي من الأخريات فقد أغراه مجونهن، وطلب منه أن يبدأ في إرسالهن منفردات إلى غرفته لتقضي معه كل جارية ليلتين أو ثلاث أو أكثر على حسب ما يجده منها، وبعد أن ينتهي منهن جميعًا يرسل له تلك الكئيبة قبل أن يعيد الكرة من جديد.

ذهب حمزة إلى فراشه يفكر في أمر الجارية التي أشفق عليها بعد أن عرف نوايا الملك في إكراهها، وتذكر قانونًا أخبره به السيد صديق ألا إكراه للنساء، وحتمًا أن ذلك القانون لن يُطبق على الملك لأنها جاريته.

ظل يراقبها بعد ذلك بنظرات شفقة وعطف إلا أن ذلك الإحساس ما لبث كثيرًا قبل أن يتبدل لإعجاب بها، كانت دموعها تمنع عن عينيه جمالها، كانت أنثى فائقة الجمال بل أنها الأجمل من كل جواري القصر، طويل شعرها ذهبي مموج منتشر على كتفيها يأخذ العين إلى أسفل خصرها الميّاس إن أردت إتباعه، وعينان بنيتان فاتحتان رغم ذبولهما إلا أن اتساعهما كاتساع أفق يراه المرء من خلف باب غار ضيق، وأهداب كأشجار الربيع كثيفة تلقي ظلالها حتى سفحي خديها، ولا تكاد تجزم بوجود شفتيها إلا حينما يبتعدا لتنطق بالحروف، وقوام صبية نَضجت لتوها إلا أن نهديها قد سبقا جسدها بالنضوج، يكسو جسدها الرقيق صبغة ذهبية خفيفة كأنه طُلي بماء ذهب ثم تقشر تاركًا أثرًا باهتًا عليه.

كان من حظ الجواري الأخريات كآبتها وذبولها، فلو كانت بنضارة أيامها السابقة للأسر، لتوجت ملكة وكن جميعًا خادمات لديها، وبعدما كان حمزة يتابعها شفقة عليها ظلت عيناه تراقبانها لافتتانه بها وتبدلت شفقة قلبه عليها بإعجاب برقتها وهدوئها، وعلى الرغم من بكائها المستمر إلا أن أنوثتها الراقية لم تغب عن محياها، لقد فتن بها حمزة لكن لا سبيل له في مجاراة تلك المشاعر التي وأدها رغمًا عنه قبل أن تتوحش وتنهش حنايا قلبه.

على وتيرة واحدة مرت الأيام تلو الأخرى، لا جديد في حياته، ما بين عمله ودروسه وحفلاته غير تارك لمشاعره أي فرصة في الانتفاضة خارج صدره، وفي ليلة بعد أن أرسل إلى الملك الجارية الثالثة ذهب إلى غرفته لينام لكن النوم جافاه وظل مستلقيًا على ظهره شاردًا كلما نجح في إبعاد طيفها عن عينيه ومخيلته لاحت من جديد وحالت ما بين عينيه وسقف غرفته، حتى أنقذه من طيفها الطاغي صوت مغاء هرة، فشتت فكره عنها وحاول النوم مجددًا إلا أن صوت الهرة لم ينقطع وسمع صوت وقع أرجل تمر من أمام غرفته مصحوبة بهسهسة خلخال، فأدرك أنها ليست أقدام أحد الحراس وتذكر أنه لم يغلق باب جناح الجواري ففز من نومه، وما هي إلا لحظات حتى انقطع صوت الهرة، فتسلل إلى خارج غرفته فوجد شيراز تنعطف إلى إحدى ممرات القصر الجانبية فتتبعها خلسة حتى استقرت عند إحدى الزوايا وظلت تتلفت كأنها تتوارى ورأى الهرة الصغيرة في أحضانها، ثم جلست في مكانها وتلفتت حولها ثم أخرجت نهدها المنتفخ النضر كثمرة فاكهة ناضجة ووضعته في فم الهرة فرضعت حليبها حتى سال من فمها واكتفت، تعجب حمزة لما رأى وشرد مستندًا إلى حائط ناظرًا تحت أقدامه وحين أدار النظر إليها مجددًا وجدها تقف أمامه متجمدة خائفة منه، نظر في عينها صامتًا فزاد ارتباكها وارتعش جسدها خوفًا من العقاب وسقطت الهرة من يدها راكضة إلى ممرات القصر، وعندما طال صمتها انفجرت بالبكاء.

- سامحني إن مغاء الهرة استفز أمومتي.

أمسك بيدها وسحبها مسرعًا إلى غرفته وأجلسها على كرسي بجوار فراشه وظل يدور حول نفسه بين زوايا الغرفة وهي جالسة تبكي.

- أريد أن أعرف ما خطبك حتى أستطيع مساعدتك، عليكِ أن تثقي بي فأنا لست من حاشية الملك، لقد جئت إلى القصر قبلك بعدة أسابيع لن تجدي ناصحًا غيري.

نظرت شيراز في عينيه الواسعتين وأومأت برأسها موافقة على أن تحكي له قصتها لكن جسدها ظل يرتعش ولم تنطق بكلمة، فربت على ذراعها بلطف لتهدئتها وبعد أن صمتت قليلًا صارحته:

- أنا أم لرضيع لم يكمل عامه الأول بعد، مات أبوه قبل أن يولد وترك لي تجارة أديرها في مدينة اللؤلؤ، وأثناء حملي كنت أشتري البضائع من داخل المدينة لأتاجر بها لكنها كانت باهظة الثمن فصبرت حتى وضعت طفلي وسمحت صحته بأن أتركه وأذهب مع قوافل التجار لأحصل بضاعتي بأقل الأثمان حتى لا تكسد تجارتي، وتركته مع صديقتي رغم أنها حذرتني بأن طريق هذه القوافل خطر وقد تنهب، لكني خشيت أن تكسد تجارة ابني أكثر من خوفي عليّ، وفي طريق عودتنا للمدينة نهبت القافلة وأسروني اللصوص وباعوني للتاجر الذي ابتعتموني منه.

كنت أفرغ حليب صدري كل ليلة وأبكي على حال طفلي الذي حرم منه، وحين سمعت مغاء الهرة علمت أنها جائعة فخرجت لأفرغ لها حليب صدري لعل الله يجزيني خيرًا ألقاه في طفلي، سيد حمزة سامحني على خروجي من الجناح دون علمك أنا لا أعرف إن كان لك سبيل في مساعدتي أم لا، لكني لا أريد إليك المتاعب فأنا لم ألقَ معاملة حسنة مذ أسرت إلا منك، ولا أريدها أن تتبدل بسبب خطئي هذا.

بقي حمزة صامتًا بعد أن سمع حديثها، وقد جاب صدره خليط من المشاعر ما بين شفقة وحب، وظل يفكر قليلًا كيف يمكنه أن يساعدها وكم سيكلفه هذا الأمر من المتاعب، وأيضًا ما مصير حبه لها بعد أن نهشت مشاعر حبها حنايا قلبه وظل شاردًا يفكر حتى سألته:

- سيد حمزة، أما زلت غاضبًا مني؟

نظر في عيونها الدامية بكاءً وابتسم محاولًا أن يطمئنها:

- لم أغضب منكِ أبدًا شيراز، لا تقلقي مهما بدا الأمر صعبًا هناك دائمًا حل، مهما كلفني الأمر سيجتمع شملك بابنك، ما اسمه يا ترى؟

بابتسامة أجابته:

- نوح.

- اسم جميل - ربت على كتفها - هيا لأوصلك إلى جناح الجواري ودعيني أفكر لعلي أصل إلى حل قريب، لا تقلقي أبدًا لكن رجائي أن تغفو عيناكِ الليلة وأنتِ مرتاحة البال فعما قريب سيجتمع شملكما.

استغل حمزة كل برهة من وقته في التفكير العميق لإيجاد حل لمشكلة شيراز، لم يكن حمزة أنانيًا في بحثه عن حل، فلم يكن يبحث في نطاق ضيق بأن يجد حلًا لحبه لها ولجمع شملها بابنها بل كان يفكر في قضيتها وحدها، لم يشغل باله أمر قلبه كثيرًا رغم أنه كان ينفطر كلما اقتربت الحلول من بعدها عنه، كان له تجربة واحدة في الحب قبل شيراز، كانت مأساوية آلت به إلى ما

هو فيه وبدلت حاله من بعد عز إلى الرعي والهرب، لكنه لم يقفل باب قلبه عليها.

قضى حمزة أيامه يفكر بعمق، وعلى الرغم من إيجاده لحلول كثيرة لكنها مثالية لا يمكن تنفيذها ومن العبث السير في دروبها المسدودة، وتذكر كلام عرابه حين قال له اسحق بقدميك أي جملة تأتي بعد كلمة مفترض وابحث دائمًا عن المتاح.

أحس أنه غارق في بحر من الأقدار المبهمة كلما ظن أنه قد وصل إلى حل وجده مستحيل تنفيذه، وبعد أن يأس من إيجاد حل أحس بافتقاده لحكمة عرابه حيث قلت دروسه لانشغاله ببناء الفنار، كان يأوي إلى الفراش مبكرًا رغم عشقه للسهر إلا أنه ملتزم بالاستيقاظ مبكرًا لمباشرة البناء، بالرغم من حاجة حمزة إلى مشورة وحكمة السيد صديق، لم يحبذ ذلك الأمر وأجله ثم أبعده عن تفكيره كلما سُدّت سبل التفكير أمامه، وبرغم حبه وثقته في السيد صديق، أحب أن يكون أمر شيراز سرًا كما أحبت في كل ليلة كانا يلتقيان خلسة بعيدًا عن أعين الحراس، كانت تطلب منه إبقاء أمرها سرًا وألا يرهق نفسه في إيجاد حل لها، مهونة عليه أمر المسئولية التي وضعتها فوق كاهله، وأخبرته أنها مؤمنة بالقدر وأن طفلها في رعاية خالقه، وبرغم أن قلبها كان يتمزق قلقًا عليه بدأ يخفق حبًا لحمزة لما لاقته من معاملة حسنة وعطف، وبعدما كانت تدعو الله دائمًا أن يجمعها بابنها، زادت في دعائها أن يهيئ لها خيرًا مع حمزة فهي لا تريد مفارقته أيضًا، ومع مرور الأيام زاد الحب في قلبها والقلق في قلبه كلما أرسل جارية للملك واقترب دورها، الأمر الذي أخفاه عنها كي لا تشقى بما ينتظرها قبل وقوعه فقد لا يقع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

وصل نائل إلى بحر الملح بعدما أرسله إلى هناك بالخطأ حليف السيد صديق لشراء البضائع، وذلك بعد أن سبقته رسالة مشفرة مع أحد الجنود أخطأ في تفسيرها، قصد السيد صديق أن يرسل نائل إلى أي مكان سوى بحر الملح وفسرها حليفه ألا يرسله إلى أي مكان سوى بحر الملح، مما كان فيه خطرًا هدد الجميع.

مرت الأيام تلو الأخرى وحمزة متكتم لأمر شيراز، وفي ليلة حالكة السواد أُجل بها حفل حانة عابد الذي يحييه حمزة بسبب الأمطار الغزيرة التي ما انقطعت عن سالمة منذ أفول الشمس حتى بزوغها ليوم جديد، جاءته شيراز إلى غرفته بعدما ترك لها باب جناح الجواري مفتوحًا باكية ترتعد، أدخلها مسرعًا ودثرها بمعطفه السميك وسألها عن أمرها، فأجابته بتلعثم وصوت خفيض إلا أنه لم يستطع تفسير كلامها بسبب الرعد المدوي وضوء البرق المشتت لانتباههما وهزيم الأمطار التي تهطل خلف نوافذ غرفته، وبعد أن هدأ الرعد قليلًا، نظرت في عينيه الواسعتين ولأول مرة تناديه حمزة دون لقب سيد قائلة بصوت رقيق يشوبه الشجن:

- حمزة إني أحبك، فبرغم كل مشاكلي الواقعة فيها أدعو الله كل ليلة أن يجمعني بابني وبك.

نظر لها حمزة مذهولًا، وكاد يتخلل قلبه شك في صدق حبها ظانًا بأنها تخدعه ليساعدها أكثر، إلا أنه طرده بلا رجعة، وبعد صمت ما لبث إلا قليل صارحها حمزة بحبه وحكى لها عن مشاعره تجاهها حتى قبل أن يتبادلا الحديث، فاحتضنته بشدة كطفلة أرعبها الرعد واحتمت بأحضان أبيها، ولأنه شاب في مقتبل عمره لم يمس النساء من قبل، ولأنها امرأة رقيقة جسدها يبشر بأنوثة مفعمة، كانت الرغبة والشبق أقوى من أي خوف أو قلق يحيط بهما أو يضيق عليهما الخناق، احتضنها حمزة بشدة متلمسًا بيده كل جزء في جسدها الرقيق حتى زاد لظى شبقهما وانفجرت أوردتهما حبًا ورغبة، فمال الاثنان إلى الفراش.

خفت الرعد وخمد اللظى وتعاهدا أنهما زوجان مهما كلفهما الأمر من المتاعب.

بالرغم من أن حمزة كان يتمنى ذلك اليوم الذي تصارحه فيه شيراز بحبها، أثقلت كاهله الهموم وزادت المسئولية عليه والالتزام بوعده لها فقد ربطهما ميثاق غليظ روحي وجسدي.

اعتلت الهموم وجه حمزة فكان دومًا شاردًا يفكر في أمره وأمرها، حتى كابوسه الذي جاءه أول مرة في فراش الشيخ حزام عاد من جديد بعد أن انقطع لينغص عليه نومه، ما كان لشيء أن يخفف عن حمزة حمله سوى لقياها كل ليلة.

في صباح يوم بارد حجبت شمسه الغيوم عن سالمة، كان حمزة يحصر الجواري ليختار واحدة يعلمها أنها ستكون رفيقة الملك في الفراش ليلًا، وكلما وقع اختياره على جارية تذكر أنه قد أرسلها من قبل، ما جعله هلعًا مشتتًا فبدأ بحصرهن ليجد أنه لم يبقَ سوى خمسة جواري فقط والسادسة شيراز، وحين أدرك ذلك وضع الريشة في المحبرة وجلس صامتًا مبرقًا عينيه شاعرًا بأن هموم الدنيا جمعاء قد حلت جاثمة فوق صدره المتهالك، ففز من مجلسه متجهًا خارج القصر باحثًا عن السيد صديق فوجده عند الفنار يباشر أعمال البناء، كان مشغولًا متعجلًا في كل شيء الأمر الذي جعل حمزة لا يتحدث معه فيما جاء من أجله وادعى أنه جاء ليطمئن عليه ثم تركه وسار شاردًا في طرقات المدينة حتى وصل إلى الجنوب، وعندما رأى التجار طرقت ذهنه فكرة أن يهربا في أمتعة أحد التجار إلى خارج المدينة لكنه لم يكن له أي علاقة مع أي تاجر والوقت قصير في تكوين صداقة حتى وإن كانت زائفة، ففكر أن يدفع لأي تاجر ثمن اختبائه في أمتعته لكنه تراجع خوفًا من أن يشي بأمرهما.

وبينما تقوده أقدامه دون أن يشعر وجد نفسه أمام البوابة الجنوبية ووجد الحارس الذي جعله يرى سيفه وسلمه إياه فيما بعد، فتذكر أن ذلك الحارس معجب بغنائه، فطرأت على ذهنه فكرة أخرى بأن يمرره ذلك الحارس إلى خارج المدينة.

أقدم عليه متخوفًا وحياه في محاولة منه أن يستنبط دواخله لتستبين له الرؤية دون مخاطرة بكشف أمره، فطلب منه أن يسمح له بتجاوز البوابات للذهاب إلى المقابر، فطلب منه الحارس تصريح دخوله، فأخبره أنه مع عابد، فاعتذر منه الحارس وأعلمه أنه لا بد من تصريح الدخول للخروج وإن لم يكن بحوزته فمن المؤكد أنه مرتبط بأمر داخل المدينة لم ينهه، تلك هي قوانين سالمة.

خيط رفيع من الأمل وانقطع وعاود حمزة أدراجه للقصر مخذولًا يجلد ذاته لأنه تباطأ في البحث عن حل بجدية، كان قد مر شهرًا منذ أن اجتمع بشيراز في الفراش لأول مرة وكانت فترة كافية إن أحسن التفكير، أما الآن فلم تبقَ سوى أيام قليلة لا يعرف عددها آملًا بأن تنال كل جارية من الباقيات استحسان الملك لتبقى في فراشه أكثر عدد من الليالي.

بدأ بتغيير طريقة تفكيره، فبدلًا من البحث عن طريقة للهرب ولم يجد لها شخصًا محل ثقة ليساعده عليها، بدأ في التفكير في الأشخاص الثقات أنفسهم وكيف يمكنهم أن يساعدوه فلم يجد سوى السيد صديق ونيروز وأيضًا عابد رغم أنه لم يكن على يقين من مدى ثقته به، وعامر لكنه استبعده واختار نيروز ليس لتساعده على الهرب إنما ليعرف منها أحوال البلدان الموجودة خلف مدينة اللؤلؤ لأنه لم يكن ينتوي الإقامة فيها ليبتعد أكثر عن سالمة.

فجلس في القصر عدة ساعات حتى تباشر الحانة عملها وتصل نيروز إليها ويا لطول تلك الساعات على قلب عاشق تهدد الأقدار مصيره بمعشوقته.

وبينما ينتظر أسند إليه الملك بعض الأمور التي أخرته عن الذهاب للحانة التي كان يجلس أمامها السيد صديق يحتسي نبيذه ويفكر في زيارة حمزة له بالصباح، الأمر الذي لم يقتنع به شاعرًا أن تلك الزيارة ما كانت للاطمئنان عليه فقط، فأرسل أحد الجنود إلى قصر الملك لإخبار حمزة سرًا أن السيد صديق ينتظره في الحانة.

كان الميدان مزدحمًا بالمارة، وهبوب الرياح متوسطًا جاعلًا أوشحة الأعمدة ترفرف دون انسدال والسيد صديق وعابد يتبادلان الحديث ويمزحان حتى أقبل عليهما رجل غريب عن المدينة وجه كلامه لعابد سائلًا بعد أن حياهما عن شخص يدعى قيصر، فأجابه عابد بأنه لا يعرف شخصًا بهذا الاسم، فوصفه الرجل لكن ما قاله كان ينطبق على معظم شباب المدينة فسأله السيد صديق عما يبحث عليه من أجله فأخبره بأن قيصر هذا قد هجر أباه في مدينة اللؤلؤ وأن عائلته تبحث عنه لأن أباه يحتضر، نظر السيد صديق في عين الغريب فأدار عينيه بعيدًا عنه وتحسس أرنبة أنفه فعلم السيد صديق كذبه وفكر مليًا ثم قال:

- قابلت هذا الشخص في ميناء اللؤلؤ منذ خمسة عشر يومًا قبل عودتي إلى هنا فكيف تقول أنه هجر أباه، إنه شاب جيد أبدًا لن يفعل هذا، لا بد أن هناك شيء آخر تبحث عنه لأجله.

فتلعثم الغريب واضطرب:

- لا يا سيدي هذا كل ما في الأمر.

ثم أدرك أن اضطرابه ملحوظ وقد يتضح أمر كذبه، فحاول أن يسبق بتكذيب كلام السيد صديق:

- عذرًا سيدي، مستحيل أن يكون قيصر في اللؤلؤ فإن هناك جيش يبحث عنه.

- جيش؟

فتلعثم الرجل أكثر وأدرك أنه كاد أن يقول كل الصدق فحاول المراوغة:

- أقصد جيشًا من أهله وقبيلته - وصمت لبرهة – عذرًا لقد أضعت وقتكما.

وانصرف مسرعًا باتجاه البوابة الغربية ناويًا أن يغادر المدينة فورًا لأنه يعلم أن أهل سالمة لا يحبون جالبي المشاكل.

وقتها قام السيد صديق مسرعًا متجهًا إلى منزله ليكتب رسالة مشفرة يرسلها إلى جاسوسه في اللؤلؤ كي يعلمه عن أمر قيصر هذا، بعدما أخبر عابد أن يرسل له حمزة الذي كان قد تراجع عن فكرة البوح بسره للسيد صديق وقرر أن يؤجل الأمر لعله يجد حلًا، وبعد أن أنهى ما أسنده إليه الملك من أعمال وذهب إلى غرفته يتجهز للخروج وجد شيراز تدخل عليه الغرفة مسرعة حتى لا يراها أحد، فاضطرب.

- ما الأمر؟ كيف تأتين إلى الغرفة في ذلك الوقت؟

كانت مضطربة يعلو وجهها مزيج من المشاعر المتضاربة بين السعادة والقلق، ظلت صامتة لبرهة واقفة أمامه وعندما هدأت سألها:

- ما الأمر حبيبتي؟

- لقد انقطع عني الطمث، إني حبلى.

بُهت حمزة مما سمع وجلس على فراشه شاردًا يدور العالم من حوله، احمر وجهه وسيطر عليه القلق وتشوشت رؤيته.

فجلست شيراز بجواره:

- أعلم أنه أمر صعب في ظل ظروفنا لكنني سعيدة لأني أحمل في أحشائي جزءًا منك.

- إنه أسعد خبر في حياة أي رجل على وجه البسيطة، لماذا يحدث معي كل هذا؟ ألم أستحق السعادة؟ أأنا إنسان سيء لهذه الدرجة كي يكون هذا الخبر صاعقة بالنسبة لي؟ إن قلبي يخفق فرحًا لكن عقلي يذكرني بكارثة في انتظاري، سامحيني شيراز إنني عالق في شباك أقداري الشرسة التي تنغص عليّ أفراحي، اذهبي الآن حتى لا يشعر أحد بغيابك وسأتكفل بالأمر، عما قريب جدًا ستنتهي المشكلة أو سأنتهي أنا.

وجلس بعدما انصرفت واضعًا رأسه بين كفيه هائمًا في حوار مع النفس.

لماذا يحدث ما يتمناه المرء في أوقات خاطئة؟ ألا أستحق أن أحيا حياة هنيئة؟ أم أن الأقدار تعبث بي؟ لماذا كل هذا التيه الذي يحيط بي؟ لا أتذكر أنني ظلمت أحدًا ولا حتى أبي قد ظلم أحدًا، لماذا بعدما كنت أميرًا في قومي

صرت مطاردًا؟ لا بل لماذا صرت راعيًا في الأصل؟ أيحدث معي كل هذا؟ من بعد عز وجاه صرت لا أجرؤ أن أطلب بحقي في إنسانة أحبتني وأحببتها، خائفًا على أقدار ابني وهو لا يزال في أحشاء أمه - ثم رفع رأسه من بين كفيه صارخًا – أنا لا أستحق هذا العناء، أقدار عابثة هي، لا بد أن أسحقها، إنني عزيز قومي لا يمكن أن أقبل بذلك الهوان.

ثم هم واقفًا قائلًا لنفسه لا بد أن أجد حلًا سريعًا جدًا، وليحدث ما يحدث، إن الموت أهون عليّ من ذلك الهوان، ونظر إلى عوده المسند على الكرسي وركله بقدمه وانصرف مسرعًا إلى الحانة، أخبره عابد أن السيد صديق ينتظره في منزله، فاستأذنه بالانفراد بنيروز التي أجابته عن جميع أسئلته حول البلدان المحيطة باللؤلؤ وعن البلد التي جاءت منها وعن طباع أهلها قبل أن تغادرها، وأخبرته بما سمعته عما حدث في اللؤلؤ بعد أن تركتها وأن ملكها قد قُتِل على يد ابن أخيه الذي انقلب عليه واستولى على الحكم، وأنها مدينة رغم رواجها إلا أنها من الصعب أن يحيا فيها الناس حياة هنيئة بسبب بطش العائلة التي تحكمها، مهما تغير الحاكم فيها إلا أن طباعهم متشابهة، وعندما سألته لماذا يسأل كل هذه الأسئلة، أخبرها أنه من الممكن أن يغادر المدينة ويذهب إلى ما وراء مدينة اللؤلؤ، دون أن يخبرها بأمر شيراز، وبعد أن طلبت منه أن يبقى ولم تجد منه ردًا واضحًا طلبت منه أن يأخذها معه لأنها كانت دومًا تفكر في الرجوع لبلدتها وأنها ستساعده على الحياة فيها، فوافق على اقتراحها مضطرًا ليهرب من إلحاحها لكنه أخبرها أنه أمر مؤجل لا ينتويه الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر

ذهب حمزة للسيد صديق وطلب منه الجلوس في الفناء أمام البحر، كان متوترًا يتحدث بكلمات متلاحقة وأنفاسه سريعة، فأجلسه السيد صديق كما طلب وأحضر قنينة نبيذه وهم بجلب الفاكهة فطلب أن يشاركه نبيذه، فاستغرب السيد صديق من حال حمزة قائلًا:

- لا يغرنك عدم ثمالتي منه إن تأثيره قوي، خاصة إنك لا تشرب النبيذ أصلًا.

أصر حمزة، فقدمه له السيد صديق وجلسا مقابل البحر الذي تكاد تنكره في عتمة تلك الليلة لولا هدير أمواجه الصاخبة التي كانت تملأ فراغ الصمت الذي ساد بينهما بعد أن تعمد السيد صديق ألا يبدأ الحديث حتى بادره حمزة موجهًا نظره ناحية السواد الحالك الجاثم فوق الأمواج كالهموم فوق صدره قائلًا على بغتة:

- ما جئتك في الصباح للاطمئنان عليك، بل لأمر آخر لكني تراجعت، وها أنا الآن جئتك مرة أخرى من أجله، دعني أحدثك عن أمور لم تكن تعلمها كنت سببًا في إيقاظ ذكراها في صدري مرة أخرى، ليتني لم أذهب إلى القصر وبقيت في غرفتي البالية التي باتت تشغلني عن ماضٍ يطاردني فبعدما كنت أدعو الله ألا تسألني عن أمري جئت كي أقص عليك حكايتي، لقد وصلت إلى درب مبهم، التوقف عن السير فيه أخطر من إكماله وإكماله حق لي لا أجرؤ على المخاطرة بطلبه، فإما أن أبقى واقفًا راضيًا بهواني، وإما أن أكمل مستعدًا للتضحية بعنقي.

خرجت من قبيلتي هاربًا، وقولي قبيلتي ليس لانتسابي لها بل لانتسابها لي، لقد كنت أميرًا في قومي مات جدي شيخ القبيلة وترك القبيلة لابنين ذكرين ليتقاسما الحكم، أكبرهما عمي ضرغام وهو أكثر سلطانًا من أبي لأن أمه من قبيلة حليفة وقوية وزوجته أيضًا من قبيلة أخرى أكثر قوة سانداه وشدا من أزره، أما أبي فلقد كانت أمه من مدينة بعيدة جدًا عنا لم نعرف أحدًا قط من أهلها وكذلك أمي هي الأخرى لا أعرف أين أخوالي ولم أشاهد أحدًا منهم من قبل ولم يحكِ لي أبي عن أخواله أو أخوالي شيئًا وليس لي من أخوة، إنني وحيد أبي وأمي التي ماتت حين كنت صغيرًا لا أتذكر من ملامحها سوى طيف يراودني ويختفي، سيطر عمي على الحكم والإرث هو وأبناؤه وكان يعطي لأبي فتاتًا من أرباح التجارة لنعيش بها، ولأن العوام كانوا يحبون أبي أكثر لم يستطع الغدر به أو إيذائه، لقد كان يكرهنا بالرغم من أنني قد خطبت ابنته في حياة جدي بوصية منه، وبالرغم من إبقاء عمي على هذه الخطبة إلا أنه كان يدور في صدره أمور أخرى لا نعلمها، وعندما طلب أبي نصيبه في الإرث لم يعترض عمي، لكنه أعطاه كل نصيبه على شكل قوافل تخرج من القبيلة

لتبيع بضائعها في مدن وقبائل اعتاد جدي على التجارة معهم فوافق أبي، وبعد أن خرجت القوافل أرشد عمي على طريقها اللصوص لسرقتها من أجله لترجع أرباحها إليه مرة أخرى هذا ما علمته فيما بعد من الشاب الذي هربني خارج القبيلة، وبعد أن صرنا لا نملك شيئًا اجتمع بنا وأصهاره ليحكموا بيننا فلقد كان من بينهم قاضٍ يحكم بين القبائل في حال النزاعات، فحكموا ظلمًا علينا بعدم أحقيتنا في أيِّ شيء فلقد أضعنا إرثنا وليس لنا حق في الحكم لأننا صرنا معدومين لا نملك شيئًا، ورأفة من عمي سمح لنا برعي أغنامه وإبله في مرعى يبتعد قليلًا عن القبيلة لكي نجد مالًا يساعدنا على العيش، ثم اعتذر للحاضرين وطلب منهم السماح له بنقض وصية جدي وفسخ خطبتي من ابنته التي نشأت على حبها، وعشنا أنا وأبي في المرعى راضين بما قسمه القدر لنا لكنني لم أنسَ ليلى ابنة عمي وطلبت من الخادم الذي كان يجلب لنا الماء أن يخبرها بأنني أريد أن ألتقي بها، وبعد إلحاح استمر شهرًا وافقت مضطرة، فتأنقت ولبست ملابسي الفاخرة الباقية من أيام العزة وشذبت لحيتي وحملت سيفي الخاص وامتطيت جوادي وخرجت أقابلها في مكان خارج القبيلة، وبعد أن التقيت بهما حيث جاءت برفقة خادمتها، أخبرتها أن حبها ما زال يضطرم في حنايا قلبي وطلبت منها أن تستعطف أبيها للعدول عن قراره، فصعقتني بفتور ردها وأخبرتني أنها لا يشرفها أن تتزوج براعٍ وأنها قد خُطبت لابن أحد شيوخ القبائل لتوطيد العلاقات بينهما، وبينما أنا مذهول لما سمعت فاجأنا أخوها ثائرًا شاهرًا سيفه للنيل مني مدعيًا أنني انتهكت حرمة شرفهم بمقابلتي لأخته، لا أدري إن كان هذا مخططًا له أم أنه من سوء قدري، لم يكن لي خيار إلا أن أشهر سيفي وأدافع عن نفسي، وبعد مبارزة طالت طالبًا منه عند كل توقف أن يتراجع وأن يعصم دماءنا غير أنه كان مصرًا على قتلي، وبعدما أدركت ألا سبيل للتراجع إلا بقتل أحدنا، لم أحبذ فكرة أن أكون القتيل فتغلبت عليه وصرعته وبعد ما رأت ليلى أخاها صريعًا هربت وخادمتها إلى القبيلة لتخبرهم وجلست أنا بجوار جثته أبكي على حالي وعلى ما سيحدث لنا، كنت تائهًا متخبطًا عاجزًا عن الحركة، ورغم عبث الأقدار بي لكنها كانت رحيمة إلى حد ما ولم ترضَ بقصاصهم مني لأنني مظلوم، وبينما أنتظر أقداري مر عليّ أحد عوام قومي وأبوه الذي كان صديقًا لأبي، فنصحني بالهرب لكني كنت عاجزًا عن التصرف فأمر ابنه بأخذي بعيدًا إلى غار مهجور وموحش لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه، اسمه غار العقرب في جبل يبعد عن قبيلتنا مسيرة يوم وليلة إذا ما أطلقنا العنان للجواد، وأنه بعد أن يطمئن عليّ هناك يرجع إلى القبيلة حتى تستبين الأمور ويعرف ما آلت إليه، على أن يرجع إليّ ليخبرني ما عليّ فعله وأعطاني قربة ماء وبعض الزاد وفعلًا بعد يومين عاد إليّ ابنه ليخبرني أنه قد حُكم عليّ بالقتل وأهدر دمي، أما أبي فقد اكتفى القاضي ببقائه راعيًا دون أجر فقط يأكل ويشرب حتى تأتيه المنية، استقبلت الخبر وأنا أتوقعه لكن عز عليّ فراق أبي حين أيقنت

أنني لن ألقاه مرة أخرى، وبعد أن انهمرت دموعي وواساني أخبرني أن أباه ينصحني أن ابتعد قدر ما أستطيع عن القبيلة وأن أذهب إلى أي مدينة بعيدة وأن أشق طريقي وأحيا حياة أخرى ولا أعلم أحدًا بأمري وأنه سوف يهتم بأمر أبي إن ساءت به الظروف.

ظللت هائمًا على وجهي لا أدري ما عليّ فعله، كانت الصحراء شاسعة أمامي والتيه يحيط بي من كل جانب كأشباح تتربص، ورغم اتساع الصحراء وطول الطريق شعرت كأنها جحر سألج منه إلى جحيم أفظع مما كنت فيه، حتى وصلت إلى المفرق وزادت حيرتي في اختياري طريق لكني لم أفكر طويلًا وسلكت الطريق الشرقي، حتى قابلت رجلًا حكيمًا هو مَن دلني على سالمة، لا أدري لماذا لم أكمل في الطريق الشمالي، هل لأقابل الحكيم ومن بعده أنت حتى أصل إلى قصر الملك وتتلقفني شباك مشكلة أعظم عما كنت فيه ساقها لي ما وصلت إليه؟

كان السيد صديق طوال حديث حمزة صامتًا ناظرًا إلى السواد الراسخ فوق موجات البحر حتى عندما أنهى حمزة كلامه وصمت، ظل السيد صديق صامتًا يحتسي نبيذه ولم يدر النظر إلى حمزة وقال:

- أكمل يا بني ما الذي ساقته إليك الأقدار بعد وصولك للقصر حتى يكون ردي وافيًا وملمًا بكل جوانب مشكلتك.

لم يدر حمزة هو الآخر ناظريه عن سواد الليل الحالك وظل يحتسي نبيذه كأنه اعتاد عليه طوال حياته وبعد صمت دام قليلًا أكمل حمزة كلامه قائلًا:

- لقد أحببت، وبرغم فيض النسوة اللاتي قابلت في سالمة لم أعشق سوى أصعبهن ظرفًا، ولسخرية قدري أنني أقص حكايتي لمَن لا يجب أن يعرفها؛ وزير الملك، لقد أحببت جارية من جواري الملك تدعى شيراز وما زلت أؤخرها عن فراشه إلى أن وصلت فراشي ولسوء أقداري المعاندة لي منذ صغري حملت في أحشائها طفلًا مني غير الذي أنجبته في مدينتها مدينة اللؤلؤ، وما زال رضيعًا يتوق إلى حليب صدر أمه، ولا أخفي عليك فكرت كثيرًا في حل تلك المعضلة قبل اللجوء إليك لكني فشلت لأني أعلم أن جواري الملك لا يمكن أن يبعن أو يعتقن وإن خذلتنا الأقدار سيُنسب ابني لغيري، أأمير كان في قومه لا يجرؤ أن يحافظ على نسب ابنه، أو أنها هكذا تكون الأقدار حين تبطش بنا؟ لقد عبدت إله إبراهيم طوال حياتي وأعلم أنه الحق على الرغم من أن جدتي التي ربتني كانت تعبد غيره، وما زلت أدعوه أن ينقذني من ذلك الضياع، هدر دمي وانتساب ابني لغيري وتشتتي في بلاد غريبة وما من سبيل لي غير رجائه.

نظر له السيد صديق وابتسم ابتسامة خفيفة قائلًا:

- لقد سمعت أخبار إبراهيم بعد أن خرجت من وطني، إنني أعبد إله إدريس وبعد بحث أيقنت أنه إله واحد وما هما إلا رسولين لقومين مختلفين.

أدار نظره مرة أخرى باتجاه البحر وصمت قليلًا:

- عذرًا يا بني أنا مَن ساق إليك مشكلتك الأخيرة دون قصد، حاولت أن أبعدك عن متاعب يومك لكي تفكر في أحداث ماضيك فلقد عرفت مذ أن رأيتك للمرة الأولى أن ماضيك يعج بالخبايا وأملت أن أساعدك من خلالك، أحببت أن تصل أنت لحلٍ دون اللجوء إليّ، فلم أكن متأكدًا من ثقتك بي، إن ضغوط وحماقات الحياة اليومية تزيح عنا آلام الماضي المتناثرة كبراكين خامدة في ضمائرنا ودواخلنا تنشط وتقذف حممها إذا ما اختفت تلك الضغوط التي كانت تشغل بالنا عنها، فإما أن نستجمع قوانا وننتفض باحثين عن حل ماضين في سبيل تنفيذه وإما أن نَتَلفّح بحممها فنصير صخورًا جامدة لا نبالي بشيء، يا بني لا أستطيع أن أملي عليك ما تفعله لأنك أعلم بأمورك مني وتفكر بطريقة غيري فما هو أولًا بالنسبة لي قد يكون رابعًا وخامسًا بالنسبة لك، قل لي إذًا ماذا تريد وأنا كفيل بتحقيقه.

- أريد كل شيء.

وصمتا قليلًا ثم استكمل حمزة:

- أريد حقي في قومي وإرثي وأرضي وزوجتي وابني أريد كل شيء، فأنا لم أجير على حق غيري ولم أطلب ظلمًا لأحد، إن ما أطلبه حقي دون غيري.

صمت السيد صديق حينًا احتسى به ثلاثة كؤوس من النبيذ ثم أدار النظر لعيني حمزة التي بالكاد يظهرهما ضوء القنديل الخافت قائلًا:

- إذا أردت كل شيء فعليك التنازل عن شيء في كل شيء، وهكذا تكون قد أمسكت العصا من المنتصف وإذا ما أمسكتها من المنتصف حقيقة أنها لن تميل من أي جانب لكنك أيضًا لن تستطيع الضرب بها، يا بني لا تجعل حياتك كالعصا بل اجعلها سيفًا تحكم قبضتك على طرفه الأثقل والأكثر أمنًا والمناسب لقبضتك فتهوى به على أعناق معضلاتك فتصرعها، اختر دائمًا جانبًا قويًا تحتمي به وتبدأ منه ولا يمكنك التنازل عنه لتستمد منه قواك وليساعدك على إدراك ما أجلته من أجله، فإن ضياع المرء في خوفه من ترك منتصف العصا خوفًا بأن يميل جانبه الذي اختار أو ضيق في أفقه يجعله لا يدري ماذا يختار، وأنا لا أعرف عنك هذا.

- مشكلتي القديمة قد حدثت وأهدر دمي وحَلها اليوم أو غدًا لن يفرق كثيرًا، أما أمر زوجتي وابني يحول بيني وبين حياتي فلنبدأ من هنا.

- أخبر شيراز أنكما ستغادران المدينة الليلة القادمة.

ثم ربت على كتفه واغرورقت عيناه بدموع حبسها دون أن تنهمر، ثم قال:

- سأشتاق إليك يا بني.

وهم من مجلسه وتركه ودخل إلى المنزل مسرعًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

أوفى السيد صديق بوعده وأرسل لهما مَن يخرجهما من القصر ومن ثم إلى خارج أسوار سالمة عبر البوابة الشمالية دون أن يودعه تاركًا في صدر حمزة وحشة الفراق إلا أنه رحم نفسه وحمزة من ألم يعصر قلوب المودعين، وبينما حمزة يجتاز البوابة الشمالية للمدينة كان السيد صديق يجلس في غرفته الخاصة وسط المخطوطات والتماثيل مستندًا إلى الطاولة خافضًا رأسه مائلًا بجسده مسندًا جبينه إلى كفه منهزمًا بائسًا كملك كهل خسر جاهه تغطرسًا على يد فارس في مقتبل العمر، يضع أمامه قنينة النبيذ الخاصة به التي لا تكاد تستقر في مكانها من كثرة رفعها لسكب المزيد، إلا أن كثرة المُدام لم تُجد على ذهنه المُجهد بالثمالة التي ما كان يحتاج في تلك الليلة سواها، بيد أن القنينة أوشكت على النفاذ دونها، وعلى طاولة مجاورة كان يضع قنينة النبيذ التي أهداها له حمزة، لم يشرب ما تبقى منها بل تركت لمثل هذا الوقت لتذكره به، وبعيدًا في نهاية الغرفة كان يرسل القنديل ضوءًا خافتًا إليه، إلا أن آلة وترية ضخمة كانت تحول بينه وبين الضوء لتلقي أوتارها على وجهه ظلالًا متقطعة تكسو نفسه المنهزمة مزيدًا من التشتت، وضوء القنديل يزيد لمعة الدمع في عينيه عندما رفع رأسه عن كفه متحسسًا بأصابعه جرحًا قديمًا في جبينه، وأدار نظره بجواره لأقصى يمينه حيث قنينة النبيذ الباقية من ذكرى حمزة ولمعة عينيه تتقطع بين تارة وأخرى إثر ظلال الأوتار الساقطة على وجهه، فرك جبينه ومقدمة رأسه فأفسد ترتيب شعره المنمق ثم أدار النظر إلى زاوية الغرفة حيث يقبع تمثال السيدة آلارا الذي كلما نظر إليه أسره وتذكر وجهها الملائكي إلا أنه لم يرسل له هذه المرة أي مسرة وترك عبوسًا يجوب وجهه الحزين، اقترب من تمثالها وصمت طويلًا قبل أن يتحدث إليه قائلًا:

- عذرًا آلارا لم يكن لي خيار آخر لقد حالت الأقدار بيننا، لا تغضبي، أن يبقى بسلام بعيدًا عنا خير من فقده للأبد، أتذكرين حين رأيته لأول مرة جئت إليكِ فرحًا أعلمك أني وجدت ابننا الذي لم ننجبه، كانت تغمرك السعادة وقتها وجاءني طيفك في نومي يقبلني ويوصيني خيرًا به، أتذكرين حين داعبتني قائلة لقد أحببت أن يكون اسمه كما أردنا أن نسمي ابننا، لقد كنت فرحًا بفرحك بيد أن قلبي خامره الخوف من الفقد، فبعد أن ودعت كل مشاعر الحب والتعلق مع رحيلك عني وقذفتها إلى الثرى لتطوق جسدك العبق وتحول دونه ظللت هائمًا في البلاد لا أبالي بأحد أضع نصب عيني ما أريده أنا فقط، لقد كساني تجردي من المشاعر هيبة وقوة صنعت بهما ما أنا عليه الآن حتى قابلت حمزة، ومن أول مرة أدركت أن ما هربت منه طوال أكثر من ثلاثة عقود سيدركني وسأحبه وسأتخذه ابنًا وسأفقده، لا أدري لمَ كنت واثقًا

من ذلك، وكلما ساعدته أكثر كنت أعلم أن فقده يقترب أكثر، أعلم أنكِ أحببتِه كابننا لكني أحببته أكثر وأنتِ تعرفين.

لماذا تعاقبينني الآن؟ لقد كان لي أكثر مما كان لكِ، لقد كان لي حبل نجاة في بحر لجي كنت غارقًا فيه، لقد كنت تائهًا في دروب متشابكة نسجتها بنفسي كخيوط عنكبوت اتسعت وتشعبت حتى ضاع منه زمامها فالتفت حوله وأبقته متيبسًا لا ساتر له ولا حاميَ من برد وأمطار ليالي الشتاء الموحشة تتخبطه الرياح العتية وتسحق في جسده دفئًا اختزنه طوال الصباح ولا سبيل له في فك قيوده يابسًا منتظرًا أيامه تمر حتى يأتي هلاكه مقيدًا بخيوط نسجها بنفسه، لقد كنت أنا ذلك العنكبوت حتى جاء حمزة لتراودني أطياف نفسي القديمة وتنفرج حنايا قلبي بعد انغلاقها وبرغم اقترابنا كان دومًا فراق يلوح في الأفق لقد كنت ألقنه الحكمة كنسر يعلم هيثمه الطيران ليحلق بعيدًا عنه بسلام، لا مفر من ذلك، إن الفراق سيد النهايات، مهما امتلأت الأحضان بالأحبة سيأتي يوم وتبيت خاوية يتلفحها برد الشتاء والوحدة، ما حزنت يومًا على فراق أحد سواكما أنتِ يا ألارا وحمزة، لا تعاتبيني أرجوكِ أخاطبكِ متوسلًا ولا تزيدي لصدري الهموم، كوني كما كنتِ دومًا صدرًا حانيًا ألقي إليه متاعبي كل ليلة لأصبح دونها.

وأسند جبينه إلى جبينها كمسافر تائه أتعبه طول الطريق وارتقاب الهلاك حتى التقى بواحة نسى عندها متاعبه قبل أن يكمل تيه طريقه الذي لم يكن وحده غارقًا فيه.

فعلى طريق آخر كان التيه يتخبط حمزة أيضًا بين الكثبان الرملية في أفق يغلفه الظلام وشتاء مطلق لرياحه العنان تجوب الصحراء الشاسعة لتعصف بكل مَن بها ولكن عصفًا كهذا لم يكن بالأمر الذي يشغل بال حمزة فلقد كان هينًا أمام عصف يجوب ذهنه ما بين فرحٍ بخروجه مع شيراز وابنه الذي في أحشائها إلى خارج المدينة بعيدًا عن خطرٍ كان يهددهم وما بين ألمٍ وشوقٍ وقلقٍ من فقد سندٍ كان يعلم جيدًا أنه ملاذه الأخير حين تضيق به الدنيا، وتذكر مروره على المفرق حين كان في نفس تلك الحالة من التخبط إلا أنه الآن يعلم إلى أين وجهته.

أما شيراز فقد كان قلبها يخفق فرحًا إلا أنها كانت ترتعد خوفًا من ليل الصحراء الموحش، وبعد أن كشف الصباح عن نوره كان حمزة وشيراز قد قطعا ربع المسافة إلى مدينة اللؤلؤ بعد أن ركض جواديهما طوال الليل بأقصى سرعة ممكنة رغم حمل شيراز إلا أنهما كانا خائفين من بزوغ الفجر دون أن يبتعدا مسافة كبيرة عن المدينة التي أشرق عليها صباح هادئ إلا أن ذلك الهدوء لم يلبث طويلًا وانقلب إلى فوضى عارمة فعلها حراس الملك بحثًا عن حمزة وشيراز بعد أن اكتشف الملك هربهما وعدم وجود جواد حمزة في

مربطه، مما جعله يستشيط غضبًا ويأمر الحراس بالبحث عنهما دون الرجوع للسيد صديق الذي كان يباشر أعمال بناء الفنار حتى لا يدع للشك سبيلًا إلى قلب الملك.

ظلت المدينة على تلك الحال عدة أيام كان قد وصلا فيها حمزة وشيراز إلى اللؤلؤ ودخلا بسلام دون أن يعلم بأمرهما أحد، لقد كان القدر حليف حمزة هذه المرة ولم يرَه أحد من أتباع عمه أو ممن يبحثون عنه من جيش ملك اللؤلؤ، والتقت شيراز بابنها نوح واجتمع شملهما وأوفى حمزة بوعده وأزيح عن صدره هم بعدما كان جاثمًا عليه ليحل محله آخر قائلًا لنفسه: وماذا بعد يا قيصر؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

وبينما يقضي حمزة أيامه الأولى في مدينة اللؤلؤ مطمئنًا مع شيراز وابنها نوح، كانت المدينتان لا تكفا حراسهما بحثًا عنه، لقد كان يعلم جيدًا أمر البحث عنه في سالمة، لكنه كان يجهل تمامًا هذا الأمر في مدينة اللؤلؤ ولم يكن حمزة هو الأمر الشاغل للمدينتين وحدهما بل للصحراء أيضًا.

ففيها مَن يهتم أيضًا لأمره أولهما الحارس حامل الرسالة من رماح راعي الجواري القديم الذي أرسله السيد صديق ليكون جاسوسه في مدينة اللؤلؤ ولينقل له أخبارها الهامة بعدما أجاب السيد صديق سؤاله سريعًا عن الشخص الذي يدعى قيصر في رسالة مشفرة فلقد كان يعلم أمره جيدًا فهو يستحوذ على اهتمام الحراس في المدينة، وثانيهما كانت نيروز بعدما علمت بأمر هرب حمزة أيقنت أنه نفذ ما كان ينتويه حين سألها عن مدينة اللؤلؤ وأجوارها وبرغم معرفتها بأمر هرب الجارية شيراز معه إلا أنها لم تهتم لذلك وقررت أن تترك المدينة بعد تسوية أمورها مع عابد وتذهب لتبحث عنهما ليذهبوا جميعًا إلى بلدتها القديمة ليستقروا هناك.

أما حمزة فقد كان ينعم بالأمان أو بالأحرى هذا ما ظنه مطمئنًا في صحبة شيراز تحت سقف منزل واحد الذي لم يغادره منذ لحظة وصوله إليه.

لم يكن يدري أن القدر قد حاك له خيوط قصته بطريقة غير التي كان يعلمها، فلقد قبض على الفتى الذي هربه من قبيلته بعد أن عاد إليها بأيام وحاولوا معرفة مكانه منه إلا أن الفتى لم يكن يعرف إلى أي وجهة ذهب وعندما أصروا وزادوا عليه العذاب قرر أن يريحهم ويدلي بأي دلو ينجيه من عذابهم، فقال لهم كذبًا أن قيصر قد ذهب إلى مدينة اللؤلؤ، وبعد بحث استمر طويلًا عنه في تلك المدينة ولم يجد نفعًا قرر عمه ضرغام أن يرسل أخاه عدنان والد قيصر إلى مدينة اللؤلؤ، وبمشاركة ملكها جعلوه شركًا لقيصر بعد أن استأجره أحد التجار للعمل في الميناء المكان الأكثر رواجًا ومقصد للغرباء، ليراقبوه جيدًا فمن المؤكد أن قيصر سيجده بدلًا من أن يبحثوا عنه، وبعد أن مرض عدنان ولزم الفراش قرروا أن يبحثوا عنه مرة أخرى في المدن والبلدان المجاورة، هذا ما أوضحه رماح مع ذكر أسباب الخلاف القديمة بين قيصر وعمه التي علمها من أحد رجال ضرغام وأوضحها بالتفصيل في رسالته للسيد صديق التي حلت عليه كالصاعقة حين علم ما بها وربط بين كلام رماح في الرسالة وبين ما قصه عليه حمزة في آخر لقاء بينهما وأيقن أن قيصر هو نفسه حمزة وأنه ساعده ليذهب إلى هلاكه، الأمر الذي جعله متخبطًا لا يعرف من أين يبدأ وكيف ينقذه ومما زاد الأمر صعوبة هو أن علاقته بالعائلة الحاكمة للّؤلؤ سيئة جدًا بعد أن كان ينتوي أن يصنع لها مجدًا وتركها لسوء طباعهم

وإحساسه لخيانتهم لبعضهم وذهب ليصنع مجد سالمة، ما كان عليه في ذلك الوقت إلا أن يُحمّل الحارس رسالة شفهية لرماح بأن يبحث عن قيصر فهو موجود في بيت سيدة تدعى شيراز إن لم يكن قد قُبض عليه وأن يؤِمنه حتى تأتيه رسالة جديدة يخبره فيها ما عليه فعله.

وصلت نيروز إلى مدينة اللؤلؤ ولم تستطع الوصول لحمزة، لكنها التقت برماح في أحد الأسواق ولأنه كان من رواد الحانة فقد كانت تعرفه جيدًا ويعرفها، سألها عن وجهتها فأخبرته أنها تبحث عن حمزة لكنه لم يكن يعرفه لأنه عندما ذاع صيت حمزة في المدينة كان رماح سجينًا في القصر وعندما صار مطربًا للقصر كان رماح قد هرب، فعرض عليها أن يستضيفها في منزله مع زوجته التي سجن بسببها وهربها السيد صديق من القصر بعد أن نسى أمر هربه دون أن يشعر أحد بالأمر أو يلاحظ غيابها فقبلت نيروز أن تكون ضيفته، وفي طريقها إلى منزله سألته نيروز قائلة: ما الذي أتى بك إلى هنا وكيف هربت من السجن؟ وأخبرته أن الحراس فتشوا عنه في المدينة كثيرًا وأن هربه أحدث فوضى في الأسواق والحانات، فأخبرها بأمره وزوجته ولماذا سجن وكيف هربهما السيد صديق لأنه كان مظلومًا، فتعجبت من أمر السيد صديق وهل شخص بمثل أخلاقه التي تظنه عليها يمكن أن ينصر مظلومًا كرماح، لكن الأمر لم يستحوذ على تفكيرها كثيرًا كان ذلك بعد يومين من وصولها إلى مدينة اللؤلؤ قضتهما تتسكع في الأسواق بحثًا عن حمزة وكانت تبيت في نزل بجوار الميناء عادة ما يقصده الغرباء، وصلا المنزل غروب الشمس بقليل فوجدا رسول السيد صديق ينتظر رماح فدهش حين وجد نيروز برفقة رماح في منزله.

وبعد أن رحب رماح بالرسول ودعاه ونيروز ليتناولوا العشاء أخبره الرسول ألا وقت للعشاء وطلب الانفراد به وأخبره رسالة السيد صديق التي عرف من خلالها أن قيصر هو نفسه حمزة الذي تبحث عنه نيروز فاستدعاها لمجلسه وأخبرها بالأمر وسألها عن سبب بحثها عنه فأخبرته أن لا علاقة لها بهذا الأمر وأنها تبحث عنه لأمر آخر كان قد استشارها فيه وأنها حاولت مساعدته فاتفقوا جميعًا أن وجهتهم واحدة وأنهم جميعًا عليهم أن يساعدوا هذا الشخص حمزة كان أو قيصر وأن ينقذوه ممن يبحثون عنه غيرهم ويؤمنوه حتى تأتي رسالة من السيد صديق يملي عليهم فيها ما يجب فعله، فمن المؤكد أن بقاءه في اللؤلؤ مستحيل وكذلك رجوعه سالمة.

تركهم رماح وذهب إلى شوارع المدينة يسأل عن منزل سيدة تدعى شيراز حسب المعلومات التي وردته من السيد صديق، وبالفعل دلته إحدى نساء المدينة الجالسات يتسامرن أمام منزل إحداهن عن منزل شيراز، وعلى الفور رجع رماح لمنزله وطلب من نيروز والحارس أن يرافقاه لأنه لم يشأ أن

يذهب وحده لسببين أولهما أنه لا يعرف قيصر وثانيهما خشية منه ألا يصدقه، فوجود نيروز مهم في تلك الحالة أما الحارس فيكون سندًا لهم إن داهمهم أي خطر، وبالفعل وصلوا إلى منزل شيراز الذي كان يجلس فيه قيصر مطمئنًا لا يدري ماذا يدور حوله وماذا يحيك له القدر من أمور لا يعرف عنها شيئًا، وعندما دخلوا إلى المنزل والتقوا به تعجب من أمر نيروز وما الذي جاء بها إلى هنا ومَن هذان اللذان يرافقاها وظن أن أمر هروبه قد وصل إلى طريق لم يستطع السيد صديق السيطرة عليه وأنه ألحق به الأذى، فظل واقفًا أمامهم صامتًا مبرقًا عينيه حتى طلب منه رماح الانفراد به وبالفعل انفردوا به وأخبروه بالأمر، ظل قيصر صامتًا لا ينطق بكلمة لم يشغل باله الخطر الذي يحيط به قدر ما شغله أمر أبيه واغرورقت عيناه بالدموع قائلًا:

- لا يهمني كل هذا أريد أن ألتقي أبي بأي طريقة حتى لو كان ثمنها الإطاحة بعنقي.

فجن جنون رماح وأخبره أن الأمر مستحيل وأن عليه أن يبقى مختبئًا حتى يستشيروا السيد صديق، فرفض قيصر وفز من مجلسه وصرخ بهم قائلًا:

- إن لم تدلني عن مكان أبي سأخرج أجوب شوارع المدينة بحثًا عنه، لقد تركته مرة أدمي أصابعي ندمًا عليها لن أتركه هذه المرة، تقول أنه مريض يلزم الفراش إلى متى أنتظر؟ أأنتظر حتى أزور قبره بدلًا من أن ألقاه وأشفي في صدري حريق شوق عجزت عن إخماده؟ الأمر لك إما أن تدلني وإما أن أخرج وحدي أبحث عنه.

نظر رماح إلى نيروز والحارس ثم قال موجهًا كلامه لقيصر:

- أقدر ما تشعر به لكن الأمر صعب للغاية يكاد يكون مستحيلًا ولا أدرى كيف سأدبر لك أمر ذلك اللقاء فلتصبر لوقت متأخر من الليل لعلي أجد طريقة لذلك لكن تذكر أني نصحتك.

جلس قيصر بجوار نيروز وقد حشت أنصال القدر خاسرته وجثمت كل الهموم التي حاول الهرب منها على كتفيه لتحني ظهره، خفض وجهه إلى الأرض صامتًا بالكاد يحبس دموعه ثم قال:

- أعلم أنكم تفعلون هذا حفاظًا على حياتي، لكن لا قيمة لحياتي إن تخليت عن أبي، إن كنت سأنجو مما يحيط بي فذلك سيكون برفقة أبي، صدقوني لا قيمة لما يفعله المرء بعيدًا عن أهله وداره، مهما رغد العيش وكثرت الأحبة لن يزنوا مثقال ذرة إن قورنوا بأبي، لا تحسبوا أن ما أفعله بطولة مني، كلا أنا لا أسعى لحماية أبي بل أسعى للاحتماء بأحضانه، فلا درع على وجه البسيطة مهما عظم يحمي المرء كحضن أبيه.

صمت الجميع وقد اعتلى ملامحهم شجن ارتسم تأثرًا بكلام قيصر أما رماح فقد قرر في قرارة نفسه أن يساعده فيما يريد مهما كلفه الأمر فهو يعلم جيدًا لوعة الفراق والظلم، ثم بدأ برسم خطته وكانت أن الحارس ونيروز سيلبسان ملابس شخصيات نبيلة وأنهم سيؤدون دور رجل وزوجته من بلاد غريبة يجوبان الشوارع لمساعدة المحتاجين ليرزقهم الله بمولود، وسيدخلان بيت عدنان والد قيصر للتصدق عليه وبالطبع سيتأكد الحراس من هويتهما ذلك الأمر الذي لا يقلق رماح في شيء حتى إذا خرجا سيجدان قيصر يرتدي ملابس رجل سقاية الماء ويحمل قربة ماء على كتفه ويمر أمام منزل والده فيستأذنا الحراس بملء جرار الماء في بيت هذا الرجل الفقير على أمل ألا يشك الحراس في شيء وذلك هو جل ما يتمناه رماح، أما رماح فسينتظر بالقرب من نافذة بيت عدنان الخاضعة للحراسة أيضًا بيد أنه سيقف بصحبة حارسها يتسامران لعل الأمر لا يسير على نحو جيد فيساعدهم على الهرب، وحذر حارسهم من المواجهة إذا افتضح أمرهم وأوصاه بالهرب على الفور.

وقبل مغادرتهم بيت شيراز أوصاها قيصر قائلًا:

- أعطي السيف لابني إن لم أعد.

ولم يقل لها أي شيء عن أمره.

ثم خرج برفقتهم لينفذوا الخطة وبالفعل نجحوا ودخل قيصر بيت أبيه ليلتقي به بعد فراق طال شهور، ليقف الحارس بالقرب من باب المنزل ويدخل قيصر ونيروز إلى غرفة عدنان التي يرقد بها مريضًا ليشفي في صدره لظى شوق وتأنيب ضمير نهش حنايا قلبه المتهالك طيلة شهور الفراق، لقد كان هو الرجل ذو الشامة الذي راوده في كابوسه لأول مرة في فراش الشيخ حزام، وما إن رأى قيصر أباه حتى ركض مقبلًا عليه وجثا على ركبتيه يقبل يداه وقدماه ويحتضنه كأنه يلامس به قلبه ليطمئن.

أما أبوه فقد انهمرت دموعه عند رؤيته لابنه الوحيد حتى وصل عويله إلى مسمع الحارس، لم ينطق قيصر بشيء غير سامحني يا أبي، وبعد أن هدأ قيصر لامه أبوه أنه بحث عنه ووجده لأنه بذلك يعرض نفسه للهلاك، مسح قيصر دموعه وأمسك بكف أبيه وقبله وهو يكرر:

- سامحني يا أبي فلقد تخليت عنك وتركتك تحمل أوزار ما فعلت.

وضع أبوه كفه برفق على خد قيصر ونظر في عينيه قائلًا:

- لا عتاب بين الأب وابنه، كيف جئت إلى هنا دون أن يعترضك الحراس؟ أخبرني عن أحوالك الآن وأين تعيش؟- ثم أشار إلى نيروز الواقفة في صمت وقد امتلأت عيناها بالدموع - ثم قال: هل هذه زوجتك؟

فنظر لها قيصر وابتسم وأدار النظر لأبيه مرة أخرى قائلًا:

- لا إنها أكثر من ذلك، إنها أوفى شخص قابلته من بعد أن تركتك، أما عن أحوالي فأنا الآن بخير ما دمت قريبًا من أحضانك، لقد تهت في الدنيا بعد أن تركتك يا أبي والآن وجدت ضالتي.

نظر أبوه في عينيه كأنه يعتذر ثم قال:

- سامحني يا بني أنا الذي لم أقص عليك أي شيء عن أقربائك لتحتمي بهم إن غدرت بك الأيام.

فابتسم قيصر قائلًا:

- لا عتاب بين الأب وابنه.

- لا يا بني إن خوفي عليك من مصائب الدهر كان مصيبة، إن تعلقك بحكايات جدتك عن بلدها وسؤالك الدائم عنه كان لي هاجسًا خوفًا أن تتركني وتذهب، لذلك أخفيت سره عنك وما أرعبني أكثر هو حلم جدتك.

- أي حلم؟

- لقد فزعت أمي يومًا من نومها قرابة الفجر وقصت عليّ حلم أرعبها، لقد رأت شخصًا من دمها بيد أنها لم تستطع تمييزه، قالت لي أنه كان يعزف لحنًا عظيمًا لم تسمع كمثله في عذوبته يومًا، لكن المرعب في الأمر أنه كان يعزف على حطام مدينة التهمتها النيران، حتى إذا انتهى العازف غفا ومن ثم استيقظ ناسيًا كل نغمة عزفها على الحطام.

- وما دخلي بهذا الحلم؟

- ألا تذكر ليلة رحيلك لقد كنت تعزف، إنك عازف الحلم يا قيصر فلا تحزن على ملك ضاع منك، ستصير القبيلة ركامًا من بعدك يا صغيري، أنه لأمر مؤسف لقد دعوت الله ليال كثيرة أن ينجي قومنا حتى عمك دعوت الله أن ينجيه.

- أتمنى ذلك، ولكن أريدك أن تخبرني بأشياء أخرى.

- سأخبرك بكل شيء.

- ما سر سيف جدتي؟ إنه بات ينغص مضجعي حين فقدته وصار حملًا ثقيلًا حين استرجعته خوفًا من فقده مرة أخرى، وهناك شيء آخر أريد معرفته أين عائلة أمي وأين أخوالي لنلجأ إليهم الأن ولأصطحبك إلى هناك لنعيش بأمان.

خفض عدنان ناظريه إلى الأرض والحسرة تملأ عينيه ثم قال:

- لقد كانت أمك من عائلة ملكية أبيدوا جميعًا عندما انقلب عليهم قائد جيشهم وسلب منهم الملك ولم يبقِ على أحد من نسلهم، كانت أمك بنتهم الوحيدة ولحسن حظها أنها كانت زوجتي وبعيدة عن المذبحة حتى ماتت دافئة في فراشها في عامك الرابع وربتك جدتك صاحبة السيف الذي يثقل كاهلك لقد استأمنتك عليه يا بني لأنها تحبك كثيرًا وأصرت أن تسميك قيصر ليكون لك مجدًا كصاحب السيف الحقيقي، لقد كنت أدعو الله أن يقبض روحي لأخفف عليك ثقل ما تحمله من هموم وتفكر في نفسك فقط لتنجو بعيدًا عني - ثم تنهد وأردف - دعني أقص عليك حكاية لعلها تكون الأخيرة قبل أن أرحل لتراب آمل أن يكون أحن على جيفتي من تلك الأيام أو يكون آخر كلامنا قبل أن نفترق مرة أخرى.

فنظر له قيصر بلهفة وخوف قائلًا:

- لن نفترق!

وقبل أن يكمل وضع أبوه يده على فمه قائلًا:

- لا تقاطعني لعل ما تبقى من العمر لا يحتمل المقاطعة دعني أدلك على سندك الذي ستلجأ له بعد الله حين تضيق بك الدنيا، اسمعني جيدًا لأنك ستقص هذه الحكاية لمَن ستذهب إليهم ليصدقوك، دعني أخبرك عن (كمت) التي تعلق قلبك بها من حكايا جدتك وأنت لا تعرفها، قبل حوالي أكثر من خمسين عامًا خرج جدك زيد الزركشي من قبيلته التي صار شيخها بعد موت أبيه وترك فيها عمك ضرغام الذي كان يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا ليحكمها مؤقتًا، وتوجه إلى أعرق المدن وقتها الإسكندرية على ساحل البحر في مصر ليروج تجارته هناك أو ليشتري منها البضائع، لقد كانت أول زيارة له لتلك المدينة والأخيرة، وبعد أن وصلها ظل يتجول في الأسواق ليعرف ما بها وما ينقصها ولاحظ وجود جنود أغراب عن المدينة يتجولون بها يبدو أنهم كانوا غزاة حتى قابل في طريقه شابة فائقة الجمال تدعى (اسمايا) تحمل في أحضانها أخيها الرضيع الذي لم يكن وقتها قد أكمل عامه الأول كان اسمه (حابي)، ظل يراقبها لأنه لم يرَ مثل جمالها من قبل كانت عيناها زرقاوين وشعرها ذهبي منسدل حتى خصرها، وفجأة تحرش بها ثلاثة من الجنود الغرباء في شارع بعيد عن الأسواق خالٍ من المارة لم يكن يرَهم أحد سوى جدك ظل يراقب حتى وصل الأمر إلى أنهم عروا كتفها وأسقطوها على الأرض فجرح أخيها الرضيع وسال الدم على وجهه فتدخل جدك ودافع عنها فضربوه وقبضوا عليه وهربت هي بعد أن حملت أخيها مسرعة لأبيها، فقد كانت من عائلة كبيرة جدًا تدعى عائلة أوزيري يقال أنهم من نسل ملك جاء من بلد وراء البحر يبحث عن شيء في مصر يهدد حكمه كان يقال أنه يلقب بملك الذهب وأنجب في مصر بعد أن تزوج من عائلة الملك وقتها وكبر النسل

وتوسع حتى صارت عائلة لها ثقلها في المدينة، كانوا تجار حرير وأقمشة لا يقدر على ثمن بضائعهم سوى الملوك والأثرياء، عرف أبوها القصة واستشاط غضبًا وقال كيف يدافع رجل عن ابنتي وأتركه للسجن فأخذ ابنته وذهب إلى قائد الجنود بقصر الملكة حاكمة مصر وقتها وقابل بالفعل ذلك القائد كان اسمه يوليوس قيصر وكان من بلاد وراء البحر، عرفه بنفسه فاحترمه القائد وسمع منه، ولأنه رجل ذكي لم يرد أن يخسر عائلة كبيرة أو يعاديهم ولم يرد أن يكرهه العوام فقد أفرج عن السجين واعتذر عن معاقبة الجنود لكي لا تضيع هيبتهم، وتعويضًا لما حدث وقف من مجلسه واعتذر للرجل وداعب ابنته بعطف وأعطاها سيفه بعد أن أخبرها أنه أعظم سيف في ذلك الوقت لأعظم قائد وأن تحتفظ به فعليه شعاره المميز له نسر ذهبي لكي يكون دليل قاطع على شرفها وأن الجنود لم يمسوها بسوء، وبعد أن انصرفوا استضاف الرجل والد البنت جدك زيد في بيته وأكرمه وزوجه ابنته التي دافع عنها وقال له لن أجد أجدر منك بالحفاظ على ابنتي آملًا أن تأتى كل عام برفقته ليتبادلوا التجارة، وبالفعل أخذ جدك زوجته الجديدة اسمايا جدتك ومعها السيف رمز شرفها ورجع إلى قبيلته بعد أن أمضت الطريق كله تبكي فراق أخيها الرضيع (حابي) الذي كانت تعتبره ابنها ما أنساها إياه إلا حين أنجبتني، كانت تريد أن تسميني قيصر لكن جدك أصر أن يسميني باسم جده، وحين كبرت وأنجبتك حققت مرادها وأسمتك قيصر باسم قائد الجيش الذي أكرمها وأباها حين ذهبا إليه، وأعطتك السيف رمز شرفها كفأل خير لتؤول بك الأيام وتصل لمكانة ذلك القائد العظيم - ثم تنهد وأمسك بيد ابنه وأردف - اذهب إلى مصر يا بني إنها كمت التي تسأل عنها فهناك ستجد سندك الحقيقي حتى إن لم يساندوك لأخذ حقك فسيجعلونك تعيش في كنفهم، إياك أن تنسى الحكاية أو اسم العائلة، عائلة أوزيري.

صمت قيصر طويلًا واسترجع الحلم الذي راوده ليلة استرداد سيفه ووجده مشابهًا لحكاية أبيه ثم قص الحلم على أبيه وأخبره ماذا قال له النسر حين ألقاه على المفرق فتأكد أبوه ألا ملجأ لقيصر غير مصر وعليه أن يحتمي بها، ثم أمره أن يسرع في الذهاب وأن ينصرف ويتركه وحده فرفض قيصر واحتضن أبيه وهو يبكي ثم سمعوا طرقًا على الباب كان الحارس يوصيهم بأن يسرعوا حتى لا يشك الحراس، فخرج قيصر مسرعًا للحارس ليطلب منه بأن يدبر له أمر هروبه وأبيه، فأخبره الحارس بأن ذلك الأمر مستحيل الآن، فتركه قيصر ودخل مسرعًا لأبيه مشتتًا لا يعرف أين عليه أن يكون برفقة الحارس أم برفقة أبيه، وقف أمام أبيه ونظر لوجهه وقال لن أتركك مرة أخرى مهما كلفني الأمر فلم يجبه فاقترب منه وهزه فوجده قد فارق الحياة فصرخ بأعلى صوته قائلًا: أبي لا تتركني، وظل يصرخ حتى سمع الحراس خارج المنزل ففزعت نيروز وخرجت مسرعة إلى الحارس لتخبره أن عدنان قد فارق

الحياة، ليفاجئا بالحراس يكسرون الباب للقبض عليهم فدفع الحارس نيروز باتجاه غرفة عدنان وأمر قيصر بالهرب فرفض الأمر الذي جعل نيروز تتردد وتفكر بالبقاء مع قيصر، لم يجد الحارس أن الوقت مناسب للتفكير فدفع نيروز أمامه بالقوة وتركا قيصر وهربا من الشرفة إلى الخارج ليجدا رماح وقد طعن الحارس الوحيد الذي كان يراقب النافذة فأخذهما إلى منزله وأمر الحارس بالإسراع في الذهاب إلى سالمة لطلب المشورة من السيد صديق آملًا أن يتأخر أمر إعدام قيصر حتى يأتي عمه من قبيلته، أما نيروز فقد أرسلها إلى زوجة قيصر لتقص عليها قصته ولتعلمها حقيقة الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

أخذ الحراس قيصر للسجن وزجوا به في غرفة مظلمة ذات أرضية باردة وباب حديدي ونافذة ضيقة مرتفعة، يظهر من ورائها القمر بعيدًا خلف قضبان حديدية تحول بينه وبين الدنيا، وبعد وقت قصير فُتح الباب ليدخل ملك مدينة اللؤلؤ وحارسان يحمل أحدهما قنديلًا، ليجدوا قيصر مزويًا في أحد أركان الغرفة جالسًا واضعًا رأسه بين ركبته وقد أدمى عينيه البكاء.

- ها أنت قيصر إذًا.

قالها الملك ببرود أعصاب وغلظة، فرفع قيصر رأسه ناظرًا في عيني الملك ولم ينطق بكلمة، فصرخ به أحد الحراس:

- أجب جلالته!

فنظر له قيصر بهدوء ثم قال:

- وإن لم أجب أسيزيد العقاب سوءًا عن موتى - وتبسم بسمة باهتة وأردف - دعك يا رجل من خوفك الذي تلقيه على الناس، أنا لست خائفًا منكما ولا من الملك، عندما يكون الموت نُصب عينيك فحتى الخوف يتخلى عنك.

اقترب الملك من قيصر وجلس على ركبته قائلًا:

- لقد أتعبتنا كثيرًا لكنك صفقة رابحة، أنت لا تدري كم من مكاسب سأجني من ورائك، أنت حقًا شاب شجاع وإن مصير الشجعان دائمًا للموت.

فنظر قيصر في عينيه قائلًا:

- أريد دفن أبي.

فضحك الملك قائلًا:

- أنت دائمًا تأتي متأخرًا يا قيصر، تأخرت كثيرًا لتأتي لنقبض عليك والآن أيضًا طلبك متأخر، لقد دفنا أباك لكني أعدك أن أدعك تزور قبره أثناء ترحيلك لعمك، لا تقلق ما أكثر الوعود التي حنثت بها لكني معك سأكون صادقًا فلا مكسب من وراء الكذب على شخص ميت.

خرج الملك وحارساه وتركوه في ظلام ووحدة موحشين لكنهما أفضل بكثير من صحبتهم.

مر اليوم تلو الآخر وقيصر ينتظر موته ولا يدري متى سيحين موعد ترحيله للأرض التي سيذبح بها، كان اليأس جليسه طوال تلك الأيام بيد أنه لم يكن يخفض ناظريه عن النافذة قائلًا لنفسه ما أقبح القمر من وراء القضبان، حتى

إذا هامت به الذكريات تذكر كل ليلة قضاها في كنف أبيه وجدته وفي صحبة السيد صديق الذي كان يبتسم كلما تذكره، ويقول مخاطبًا طيفه البعيد يا لخسارة ما تعلمته منك أن يدفن بصدري تحت الثرى.

وفي ليلة ظل قيصر يسترجع ذكرياته ويفكر في أحلامه التي كان ينوي أن يحققها برفقة شيراز ومولودهما ونوح حتى تملكه اليأس، فتذكر النسر الذهبي الذي رآه في حلمه، فقام من مجلسه رافعًا يديه نحو النافذة وقد تشوشت رؤيته يترنح كأنه ثمل صارخًا مخاطبًا النسر أين أنت الأن؟ ألم تقل لي أن أجد عشك؟ أين عشك؟ أكانت جدتي خاطئة حين تمنت لي مستقبلًا مثلك؟ أمت سجينًا مثلي يا رجل؟

وفجأة حط النسر الذهبي على النافذة وراء القضبان ففزع قيصر، نظر له النسر وتسلل من وراء القضبان إلى داخل الزنزانة وقيصر لا يدري أحلم هذا أم حقيقة، تشتت رؤيته وملأ أذنيه ضجيج صمت، فرد النسر جناحيه وحلق بين أركان الغرفة حتى ولج في ظلام أحد الأركان واختفى، ظل قيصر ثابتًا في مكانه صامتًا مبحلقًا في الظلام الراسخ في ركن الغرفة، وفجأة رأى رجلًا يتقدم من وسط الظلام موشحًا بملابس بيضاء، وقف أمامه مبتسمًا ثم قال:

- ها أنا قد جئتك يا قيصر.

فارتبك قيصر وسأله:

- مَن أنت بربك؟

فابتسم الرجل قائلًا:

- أنا طرف الخيط الذي جئت في نهايته، لولا وجودي في مصر ما تحرش جنودي بجدتك وما تزوجها جدك ولم تكن لتجيء، أنا النسر، أنا صاحب السيف، أنا صاحب اسمك الحقيقي لقد جئت إليك لأخبرك شيئًا واحدًا، لم تكن جدتك خاطئة حين تمنت لك مستقبلًا كأعظم رجل في زمانه، لا تدع اليأس يتملكك فلم أمت سجينًا، إن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة إنها تعبث بنا يا رجل، إن القدر الذي جعلني أُقتل بين شعبي ووسط أصدقائي وعلى أيديهم لقادر أن ينجيك وأنت محاط بالأعداء، لا تقس بمقياس أحد فدائمًا هناك جديد تحت تلك الشمس، ورفع ناظريه إلى النافذة لينبه قيصر ببزوغ الشمس فأدار قيصر ناظريه إلى النافذة برهة وأعاد النظر ناحيته مرة أخرى فلم يجده، تملك قيصر الصمت قليلًا محاولًا أن يستوعب ما حدث من حوله وغاب عن الوعي من قلة النوم وكثرة التفكير.

بزغت الشمس وخرج رماح من منزله بعد أن لزمه طويلًا خوفًا من افتضاح أمره وانتظارًا لرسالة السيد صديق لكنها تأخرت، فبدأ بتقصي أخبار قيصر

من الحانات والتسكع في الشوارع لعله يسمع خبرًا عنه، وبحديثه مع أحد أصدقائه من الجنود علم أن قيصر لم يُعدم بعد وأنه سيُرحل فجر الغد لقبيلته تحت حراسة فرقة من الجيش ليقتص منه عمه أمام قومه.

سمع رماح الخبر كالصاعقة فالوقت قصير ولم تأتِ بعد أي رسالة من السيد صديق، وحتى إن وصلت الآن فلا وقت أمامه ولا قدرة لمواجهة جنود الملك.

وبعد سؤال الجندي عن أمر مَن كانوا يساعدون قيصر في المدينة أخبره أن الملك لم يهتم فليس له خصومة مباشرة مع قيصر ليعاقب مَن ساعده وأن كل ما كان يريده هو قيصر فقط فهو الصيد الذي سيجني من ورائه مكاسب عظيمة من حليفه ضرغام الزركشي.

اطمأن رماح قليلًا على نفسه ونيروز لكنه ظل يفكر طوال طريقه إلى منزله، كيف يمكنه أن يساعد قيصر وحده بعدما انقطعت الرسائل من السيد صديق، الأمر الذي جعل زوجته تشفق عليه، وقالت له محاولة أن تنتشله من حيرته:

- هون على نفسك يا رماح، لم تقصر فيما طلبه منك السيد صديق إنه رجل رحيم ولن يستاء منك.

- لقد بدأت في هذا الأمر امتثالًا لأوامر السيد صديق، لكني حين جلست مع قيصر أحببته بصدق، أريد أن أنقذه لأنني لا أريد موتًا لشخص مثله، لقد كنت متعجبًا من أمر نيروز حين قابلتها تبحث عن شخص وعرفت بعدها أنه هو، ومن أمر السيد صديق لأنه أرسل لي لمساعدته، وحين قابلته عرفت لماذا يساعدانه؛ إنه شخص تلج روحه إلى القلب وتسكنه دون أن يقدم للمرء أي شيء ليحبه، أراهنك أن الملك الظالم الذي نعيش تحت رايته هو نفسه أحبه، وأدعو من الله أن يُدخل إلى قلبه الرحمة ويفرج عنه.

كان الوقت متأخرًا من الليل قبل بزوغ الفجر بقليل عندما طرق الحارس باب منزل رماح فعلم رماح وقتها أن الرسالة قد وصلت وفتح الباب مسرعًا وسحب الحارس للداخل قائلًا:

- كيف وضع السيد صديق خطه لإنقاذ قيصر؟ وما عليّ فعله؟ انطق بسرعة ليس هناك وقت للصمت!

ابتسم الحارس بسمة تملأها الثقة قائلًا:

- لقد أعفاك السيد صديق من هذه المهمة وتولى الأمر بنفسه، تعال معي دون نقاش.

فالتقط رماح سيفه الكامن في غمده وطوق خصره بحزامه وانتعل حذاءه وخرج مسرعًا مع الحارس، امتطى جواده وتبعه إلى خارج المدينة في اتجاه

مدينة سالمة، وعند هضبة منخفضة بالقرب من مقابر مدينة اللؤلؤ انعطفا خلفها ليرى رماح السيد صديق والأميرة حور وفيلق من جيش سالمة جاءوا جميعًا لإنقاذ قيصر.

ابتسم رماح قائلًا في قرارة نفسه:

- حقًا إنه فتى يستحق أن يخرج لنصرته جيش كامل.

ترجل رماح ناحية السيد صديق واحتضنه مقبلًا كتفه ورأسه ثم نظر في عينيه قائلًا:

- سامحني سيدي لقد كانت تراودني الشكوك وقلت لنفسي كيف للسيد الصديق ألا ينهي شيئًا بدأه وكيف يتخلى عن شخص كقيصر.

ابتسم له السيد صديق ولطم خده برفق قائلًا:

- أفضل أن يظن الناس بي السوء ولو لمرات، على أن يكونوا على حق في واحدة، أخبرني عن الأمر هل ما زال لدينا فرصة؟

- ساعات قليلة، سيرحل عند بزوغ الفجر.

تنهد السيد صديق ثم قال:

- ما دام على قيد الحياة فأنا كفيل بإنقاذه إنها غايتي الآن ولا شيء يرد المرء عن غايته سوى الموت وغبائه - ثم سأله مجددًا - هل هناك سبيل للمفاوضة؟

فعض رماح على نواجذه ثم قال:

- لا سبيل للمفاوضة مع أحقر ملك لأحقر عائلة رأيتها في حياتي، إن الأمر ليس متعلقًا بدفع فدية أو شرائه لمرة واحدة، إن العلاقة قوية جدًا بين الملك وعم قيصر وبينهما تجارة وأموال طائلة متبادلة ولن نستطيع أن نكون حلفاءه أبدًا.

فنظر السيد صديق ناحية الأميرة حور قائلًا:

- إذًا لا جدوى من وجود حور، فلا سبيل سوى معركة، أليس كذلك؟

فهز رماح رأسه تصديقًا على كلامه ثم قال:

- ما الذي أتى بالأميرة حور أصلًا إلى هنا؟

- استعنت بها للمفاوضة فإن علاقتي ليست طيبة مع هذه العائلة.

ذهب السيد صديق للأميرة حور وأخبرها عن الأمر وطلب منها الرجوع برفقة حراستها الخاصة فرفضت مبررة أنها تعلم ألا سبيل لرجوع قيصر إلى سالمة

وأنها تريد أن تودعه بعدما ينقذوه وأنها غير قلقة على أبناءها أو قصرها فهم تحت حراسة الجيش مقابل حرس الملك الخاص، قائلة:

- الأمر كله في أيدينا فلا تقلق.

رجع السيد صديق لرماح ليعلم تفاصيل الأمور فأخبره أنه سيرحل عند بزوغ الفجر وأنهم بالفعل في خط السير الذي سيمرون منه، فاطمأن السيد صديق أن المعركة ستدور في الصحراء ولن يضطر لمهاجمة المدينة، ثم أخبره رماح أن المقابر قريبة جدًا منهم إن أرادوا الاستطلاع، فأرسل على الفور ثلاثة جنود ليختبئوا في المقابر للاستطلاع وأمر رماح بالرجوع إلى منزله لكي لا يُرى في المعركة ويُفتضح أمره.

وقف السيد صديق في مهب النسيم دون ساتر، يستنشقه ويحتسي نبيذه ويسترجع ليالي قضاها برفقة قيصر في فناء منزله على شاطئ البحر.

كان النسيم عليلًا حين تسلل من نافذة الغرفة المظلمة ليعلم قيصر أنه ليس وحده، لم يخبره النسيم بشيء لكنه استنشق في رائحته بعضًا من الحرية حتى وإن كانت تأتيه من وراء قضبان.

بزغ الفجر وفُتح باب السجن ليؤخذ قيصر إلى الملك الذي ابتسم في وجهه قائلًا:

- لم أحب أحدًا في حياتي يا فتى، لكنني أشعر أنك شخص شريف، ولكن لا تتفاءل كثيرًا فإن العواطف لا قيمة لها عندي، اعذرني سأجني من ورائك خيرًا كثيرًا، ولكني سأوفي بعهدي معك لقد أمرت قائد الفرقة التي ستسلمك لعمك أن يقف عند المقابر لتودع أباك - وبسط ذراعيه - أظن أنني ملك عادل حقًا، إنني بالفعل عادل - ثم صمت قليلًا قبل أن يقول:

- ألك مطالب أخرى؟

- أريد الاغتسال وملابس أنيقة.

فنظر الملك مستنكرًا وضحك قائلًا:

- وما فائدتها لشخص ميت؟

- لا أريد أن يراني قومي بهذه الملابس البالية، لقد كنت أميرًا في قومي حتى حين رعيت الأغنام لم يدعني أبي أن أرتدي ملابس غير ملابسي وأنا أمير.

فربت الملك على كتفه قائلًا:

- إنك حقًا رجل شريف، لك ما طلبت.

وأشار لأحد الحراس بتنفيذ الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

تنفس الصبح أنفاسه الأولى لذلك اليوم وطلت الشمس في حلة باهتة من وراء جو ملبد بالغيوم والأتربة، كان نهارًا حارًا وكئيبًا على عكس فجره يبعث في النفس ضجرًا وفي الصدر ضيقًا، كأن الشمس بزغت لتحترق ولتنذر العالم بأنها تحتضر وأن آخر أيام الأرض قد اقتربت، حين خرجت فرقة الجيش برفقتها قيصر غير مكبل أو مهان، سالكة طريقها في شوارع المدينة متجهة ناحية الجنوب لا تدري أن بانتظارها رجلًا لو خير بين قيصر والعالم لاختاره.

كان السيد صديق منتظرًا في شوق للمعركة كأنه قائد في معركة للدفاع عن أرضه، وبينما ينتظر جاءه أحد جنود الاستطلاع المختبئين في المقابر ليعلمه بأمر غريب.

أخبره أن هناك امرأتين وطفلًا رضيعًا إحداهما بحوزتها سيف، جالستين عند أحد المقابر وأنه يشك بل يكاد يكون متأكدًا أن إحداهما نيروز الراقصة في حانة عابد، والغريب في الأمر وجود جواد حمزة الأسود معهم.

التفت له السيد صديق بانتباه فلقد علم من الحارس حين أتاه هاربًا من اللؤلؤ أنه قابل نيروز هناك وكانت برفقتهم، فاستنبط أن مَن معها هي شيراز ورضيعها، ثم قال لنفسه ها قد بدء القدر عقباته، وقبل أن يأخذ قراره في إبعادهم عن أرض المعركة جاءه جندي آخر يهرول قائلًا:

- سيدي إن الركب قد ظهر من بعيد.

تشتت فكر السيد صديق وفرك جبينه ناظرًا حوله، وامتطى جواده وتجرع جرعة كبيرة من النبيذ وأشار لقائد الجيش فأمرهم بالاستعداد.

صحراء وجو يغلفه الغبار وشمس تسطع فوق الرؤوس، كأنه الحلم الذي راود قيصر في فراش الشيخ حزام، فرقة بحوزتها قيصر المأسور تتقدم من ناحية الشمال والسيد صديق وجيشه من وراء الهضبة ينتظرون لحظة المفاجأة، وامرأتان ورضيع بينهما تلوذان بقبر عدنان تقربًا لقيصر وحبه المحفور بقلبيهما، حرب تلوح في الأفق ودماء تنتظر اجتزاز عروقها.

اقترب أحد الجنود من السيد صديق وأعطاه فأسًا للحرب لا يقاتل بها أحدًا سواه في كلا الجيشين، فأخذه ودسه في جعبة حصانه ثم ناوله الجندي

رمح مدبب من الطرفين ذلك هو السلاح الذي سيبدأ به المعركة.

وقف السيد صديق بحصانه على رأس جيشه منتظرين لحظة البدء.

ـَ

اقتربت فرقة جيش اللؤلؤ من المقابر ووقفت هناك، ترجل قيصر محاطًا بخمسة من الجنود من بينهما قائد الفرقة وأشار لقيصر على موضع دفن أبيه، فوجد شيراز ونيروز ونوح بجواره، وقف صامتًا أمامهم وقد أذرف الدمع من عينيه، وكلتاها تبكيان لا على والده بل عليه، ركضت شيراز ناحية قيصر وارتمت بأحضانه ثم قالت:

- رغم ما نحن فيه ما زلت أشعر بالأمان في أحضانك.

ضمها قيصر برفق وربت على ظهرها قائلًا:

- لعل كل ما حدث لي وتأجيل موتي لهذا الوقت، كي أنقذك وأرجعك إلى رضيعك ولتحملي في أحشائك ذكرى مني لهذه الدنيا ليخبر العالم أن رجلًا هنا قد عاش يدعى قيصر.

نظرت في عينيه الغارقتين بالدموع ثم قالت:

- أحببتك وأنت حمزة وما زلت، وسأبقى أحبك يا قيصر.

ثم نظر إلى نيروز الواقفة بالقرب من قبر أبيه وترك زوجته واقترب منها واحتضنها وهي تبكي بحرقة وأسى ثم قال:

- أشكر لكِ كل ما فعلتيه من أجلي، سامحيني إن خذلتك يومًا فلعل ما كان بيننا أكبر بكثير مما بيني وبين الناس.

نظرت له ورفعت السيف في غمده لتريه إياه فابتسم وقال لها:

- لقد علمت القصة كلها من أبي لم أسبقك بعلمها، إن كل ما أتمناه منكِ الآن أن تنتظري هنا حتى يولد ابني ويستطيع الفهم لتعطيه سيف جدتي ولتخبريه القصة كاملة كما قصها علينا أبي، أرجوكِ نيروز لا أريده مثلي يحمل على كاهله ثقلًا لا يعلم قصته.

ابتسمت نيروز ولم تنطق بكلمة ثم تركها وجثا على ركبتيه يقبل شاهد قبر أبيه ويبكي.

في هذه اللحظة اقترب قائد جيش سالمة من السيد صديق قائلًا:

- أعرف ما تفكر به سيدي، لكن هذه هي اللحظة المثالية للهجوم، اترك الامر لي لن تصاب أي امرأة بمكروه.

فنظر السيد صديق في عينه، فقال له القائد:

- ثق بي سيدي.

فأعطاه إشارة البدء وركض أمام الجيش ليسبقهم إلى المعركة.

لاحظت فرقة اللؤلؤ هجوم جيش غريب، شيء لم يكن في الحسبان والمدينة بعيدة وليس هناك وقت لطلب مدد، أمر القائد الفرقة بالاشتباك وركض ليقودهم، التف الجنود الأربعة حول قيصر ووضع أحدهم سيفًا على عنقه، صرخت شيراز وابتعدت قليلًا حاملة رضيعها نوح، أما نيروز فسحبت خنجرًا كانت تطوق فخدها بغمده وزرعته في عنق الجندي الذي أشهر سيفه على قيصر فدفعها أحدهم بقدمه فأسقطها، فالتقط قيصر سيف الجندي المقتول ودافع عنها بحرقة وقتل الثلاثة المتبقين واطمأن عليها أنها بخير وركض ليشارك في المعركة.

كانت معركة طاحنة حارب فيها جنود سالمة بشجاعة حبًا في قائدهم السيد صديق، الذي كان يحارب كشاب في مقتبل عمره، يحصد الأعناق بفأسه ويغتال الصدور برمحه، تقهقرت جنود اللؤلؤ حتى التحموا بقبر عدنان وكانت المعركة فوق القبور.

أخذت نيروز نوح من أمه لتبتعد به عن المعركة، أما شيراز كانت حركتها بطيئة بسبب حملها، وفي طريقها للهرب سُحِقت بين جوادين التحما ببعضهما ودُهِسَت تحت الأقدام.

فصرخت نيروز قائلة:

- شيراز!

فانتبه الجميع، الأمر الذي كان فيه نهاية فرقة اللؤلؤ، فحينما قُتلت امرأة لجيش سالمة، حاربوا بحرقة ودموية أكثر، فأبادوا جميع جنود اللؤلؤ ولم يبقوا على جريح أو أسير، أما قيصر فقد ركض على زوجته الغارقة في الدماء والملقاة في أحضان نيروز بجوار قبر أبيه، وجثا على ركبتيه وأمسكها من كتفيها يهُزها حتى لا تفارق الحياة، كأن الموت نوم يمكن إبعاده لكن هيهات يا قيصر.

انتهت المعركة وما زال قيصر يهُز كتفي زوجته وما زال في صدرها أنفاس تلفظها، التف الجميع حول قيصر، السيد صديق، الأميرة حور والجنود يشاهدون ولا يقدرون على شيء، وقيصر يبكي وينظر إلى السماء صارخًا:

- اترك لي أحدًا لا تأخذ الجميع.

فوضعت شيراز كفيها على صدره وقالت آخر كلامها إليه وآخر كلام لها في هذه الدنيا:

- منذ قليل كنت توصيني خيرًا بابنك الذي في أحشائي ليكون ذكرى لك والآن الأمر قد اختلف، لا تترك ذكراي لأحد يا قيصر فلعل كل ما حدث لك هو تدبير مِن الله لكي نلتقي ليكون لابني مَن يرعاه بعد مماتي، كن لنوح أبًا وأمًا

وأحسبه ابننا الذي لن يشاهد نور الشمس يومًا، ولكن لن تستطيع إلا بعد أن تستقر حياتك، اتركه حتى يكبر قليلًا مع نيروز فقد صارت كأختي واذهب كما قال لك أبوك، ولا تنسَ حين ترجع إليه أن تخبره أنني أحبه وأحبك.

ولفظت أنفاسها المتبقية كلها بشهقة أخيرة وفارقت الحياة، فخفض قيصر رأسها وضمها إلى صدره فالتصقت دماؤها بقميصه ولحيته وهو يقبل جبينها وموضع طفله في بطنها، والجميع واقفين في صمت كأن الطير عشش فوق رؤوسهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

هنا رفع قيصر يده عن بقعة الدماء التي على قميصه وقد أنهى حبل ذكراه كله، ونظر إلى الشمس الساطعة فوق رأسه، ثم التفت إلى الطريق الرابع على المفرق، الطريق الوحيد المتبقي أمامه الذي لم يسلكه بعد، ثم نظر إلى السيد صديق الذي ترك الأميرة حور ونيروز ونوح يرجعون برفقة الجيش واصطحبه إلى المفرق ليودعه، ثم قال:

- لا أجد في صدري كلمة تعبر عن مقدار عرفاني بجميلك.

- وماذا بعد يا قيصر؟ ها قد فرغت من كل ذكرياتك هنا على المفرق وألقيت بها لتلك الرمال لعلها تكون ألطف بها من صدرك المتضارب المشاعر الذي لا يهدأ أبدًا، ما هي الخطوة القادمة التي ترنو إليها؟

التفت له قيصر وجعل الطريق الرابع إلى ظهره ونظر إليه بعينيه الداميتين قائلًا:

- اعذرني سيدي بل يا أبي، صدقني أنا لست مدانًا لأحدٍ سواك، لقد أنقذتني من الموت في سالمة، وكان من الممكن أن تقول لنفسك لقد قدمت كل شيء له، لكنك لم تتركني وحدي حين أُسِرت في اللؤلؤ وأنقذتني صبيحة البارحة من موت آخر كلفنا الكثير، لقد زُهقت أرواح لم يكن لها ذنب من أجل أن أعيش أنا، ولا أدري لمَ القدر مُصّرُ على البقاء عليّ في هذه الدنيا، اعذرني لقد ألحَحت عليّ من بعد المعركة أن ترافقني إلى هنا خوفًا عليّ، فليكن إذن آخر تلاقي أقدامنا هنا على المفرق، لا بد أن نفترق لا بد أن أسلك طريقي وحدي وأن أتَحَمل أوزار اختياري، فلنفرغ من اللعبة، كفاني أخطاء تأخذني إلى موتي وتأتي أنت لتعيدني للحياة، فلتتركني لأكن أنا بما أفعل لا أنا لأنك تشد من أزري.

نظر له السيد صديق وذكرى حديثه مع تمثال زوجته يطوف في مخيلته وعندما هَم بالحديث قاطعه قيصر قائلًا:

- اعذرني لم أقاطعك أبدًا في حياتي، لكن لدي حجة إن أردت النقاش، حجة تعلمها تلميذك منك، ألست مَن قلت أن من الخزي أن تكون قصة حياتك أنت وبطلها شخص غيرك، هذا ما نحن فيه الآن إنها قصتي وأوزاري وما زلت أنت البطل، فلتعطني الفرصة ليكون البطل هو أنا صاحب القصة ولأثبت للقدر أنني جدير بتلك الحياة، لم تُزهق الأرواح لي عبثًا ولا هباءً ولأنفذ وصية أبي، وسامحني لن أدلك إلى أي وجهة سأتجه لأني أعرف أنك ستساعدني في الخفاء.

نظر له السيد صديق وقلبه ينفطر ولأول مرة لم يجد شيئًا ليقوله.

زاد المفرق وحشة وعمه الصمت، لا شيء سوى صفير الريح في آذانهما في تلك اللحظة.

حتى فاجأهما صوت من بعيد ينادي أدركنا يا سيد صديق، نظر الاثنان بلهفة باتجاه الصوت، كان صوت فارس يركض بجواده قادمًا من الطريق الشمالي طريق مدينة اللؤلؤ.

اقترب الحارس وقفز من على صهوة جواده أمام السيد صديق وهو مرتبك وبالكاد يلفظ الأنفاس ثم قال بصوت يملأه الرعب:

- أدركنا يا سيدي، إن الأميرة حور والجيش في ورطة كبيرة لقد سيطر الملك مجد على المدينة وأسر الأمير قصي والأميرة درة بمساعدة جيش من المرتزقة قاده نائل إلى المدينة، هذا كل ما عرفته من الجنود الهاربين الذين قابلونا قبل سالمة بقليل، لقد اتجهت الأميرة حور والجيش إلى أرض عائلتها عند البحيرة الخضراء لتتدبر ماذا ستفعل وأرسلتني لعلي أجدك لتساعدها في أن تجد طريقة لإنقاذها، إنها في حالة يرثى لها يا سيدي.

استند السيد صديق على جواده ووضع جبينه على سرجه برفق وصمت قليلًا حتى هجعت أنفاسه، وقيصر والفارس صامتين ينظران إلى بعضهما خلسة حتى رفع السيد صديق رأسه موجهًا كلامه إلى قيصر:

- ما قرارك إذن؟ - قالها بصوت هادئ كأن ما قاله الحارس لم يشتته أو يربكه -.

- أي شخص تحسبني يا سيدي، لست أنا مَن يتخلى عن مَن ساعدوه سأضع وصية أبي على هامش اهتمامي الآن لنرى ماذا نحن فاعلون في أمر نجلي الأميرة حور والمدينة.

هز السيد صديق رأسه قائلًا:

- هيا بنا لكن أريدكما ألا تكفا عن التفكير في الأمر طوال الطريق فالأمر ليس بهين لعلي أجد عند أحد منكما أو غيركما خطة أفضل مما في رأسي الآن.

وامتطوا أحصنتهم مسرعين ناحية البحيرة الخضراء مسقط رأس الأميرة حور وبها قلاع عائلتها وجنودهم.

كانت الأميرة حور حقًا في حالة يرثى لها، استضافها عمها في قلعته المجاورة لقلعة أخيها الذي أرسل فور وصولها جيشه لمحاولة إنقاذ ابنيها دون مشورة أو تدبير.

حتى وصل السيد صديق وقيصر واستقبلهما الأمير قاسم عم الأميرة حور بحفاوة وكرم فطلب منه السيد صديق الاجتماع بكل من لديه رأي في الأمر

على وجه السرعة وقد كان.

اجتمع كل من السيد صديق وقيصـر والأميرة حور التي كانت شاحبة الوجه منكسرة على عكس طبيعتها المعتادة وشقيقها الأمير شكر وعمها الأمير قاسم وأبناؤه الخمسة ليتدبروا الأمر، أجلسوا السيد صديق على رأس الطاولة فطلب منهم أن يدلي كل واحد بدلوه، وبعد أن استمع للجميع رفض آراءهم جميعًا فجميعها كانت متشابهة، مجرد حرب دون دراسة أو تدبير تقودها مشاعر الانتقام والغيظ، ثم وقف من مجلسه وطلب منهم أن يبقوا جالسين، طلب قنينة نبيذ واحتسى منها كأسين وهو ينظر من شرفة مطلة على مروج واحة البحيرة الخضراء وبعد أن أنهى الكأسين التفت لهم قائلًا:

- أظنكم جميعًا تثقون بي لم نكن خاطئين حين خرجنا ببضع من الجيش خارج سالمة، إنها كانت فرصة أهداها لنا القدر حتى لا نكون في المذبحة ولكنها بلا قيمة إن لم نحسن استغلالها، لقد شيدت حصون سالمة قبل سنوات لتصد عنها أي هجوم ولنحيا داخلها مطمئنين، لم يخطر على بالى يومًا أنني سأضطر لمهاجمة تلك الحصون، صدقوني إنها منيعة لن يستطيع أي جيش اختراقها، لقد دخل جيش المرتزقة من البوابات بأمر الملك وبقيادة نائل بكل لين ويُسر وهذا أمر لن نستطيع تحقيقه.

فهَم شابان من أبناء عم الأميرة حور بالمقاطعة غاضبين فصدهما والدهما وعنفهما على مقاطعة السيد صديق الذي نظر لهما بهدوء ثم قال:

- ليس ذلك الوقت المناسب لعنفوان الشباب، أنا الذي بنيت سالمة وحصونها وأنا أدرى الناس بها، لكن دائمًا هناك حل.

أنا الذي أرسلت نائل لشراء كل ما يلزم للمدينة من حبوب وطعام يصلح لمدة عام، لكنه من المؤكد أنه لم يشترِ أي شيء من هذا واشترى بدلًا منه جيشًا من المرتزقة الذين لن يكفوا عن طلب المزيد، ولن يتركوا سالمة حتى إن فرغت خزائنها فهم دائمًا مشتتين وأخيرًا وجدوا مدينة محصنة واستولوا عليها ويبدو أن أعدادهم كثيرة مكنتهم من السيطرة على المدينة التي بلا طعام يكفي الجميع، إن هدفنا الآن ليس سالمة بل الأميرة درة والأمير قصي فلنفتديهم بالمال فإن سالمة ستكون في أمس الحاجة للمال، إنها ستكون بلا مال أو طعام بعد شهر واحد، كما أن التجارة ستنقطع عنها فلا يوجد تاجر يود التعامل مع اللصوص وسيشعر مجد بالورطة التي وضع بها نفسه وسيجد نفسه تحت قيادة المرتزقة وليس العكس كما كان يريد، ولكن لن نستطع تنفيذ هذه الخطة قبل أن يشعروا بالمجاعة فعلًا، وليَحدُث هذا علينا محاصرة المدينة من بعيد وقطع طرق التجار فلعل هناك مَن يريد إبرام صفقة مع

اللصوص، سننجح في ذلك وسننقذ الأميرة والأمير ثم نتدبر أمر استرجاع المدينة على تريث.

فرد عليه عم الأميرة حور قائلًا:

- رأي صواب سيد صديق إن المال موجود وكل شيء تحت إمرتك ولكن هناك أمر متسرع أخذناه دون مشورتك، لقد أرسل ابن أخي جيشًا لاقتحام سالمة وكل خوفي الآن من رد فعل الملك على الطفلين.

- ومَن قال أننا لن نهاجم المدينة؟ لا بد من شن الهجمات عليها رغم علمي بأنها بلا فائدة، ولكن ليطمئن مجد أننا لسنا قادرين على الاقتحام، وقتها سيشعر أن الطفلين ليسا الدرع الوحيد الذي يحتمي به فلديه درع أقوى وهو أسوار سالمة، ولن يمسهما بأذى لأنهما كنز يساوم عليه.

ثم نظر إلى الجميع وفرد ذراعيه سائلًا:

- هل هناك أي اعتراض على ما قلت؟

فصمت الجميع.

ثم اقترب السيد صديق من الأميرة حور وربت على كتفها وانحنى أمام رأسها قائلًا:

- لا تقلقي إن أمر ولديك تحت سيطرتنا إنه أمر سهل للغاية، أما المدينة فهي ليست بوطن أحد منا، أخشى أننا خسرناها.

فوقف عمها قائلًا للسيد صديق:

- فلترتاح الآن أنت وضيفك فمن المؤكد أن طول السفر أتعبكما.

طلب قيصر رؤية نوح والاطمئنان عليه فوجده يلعب مع مربيات القصر، وبعد أن جلس معه قليلًا ذهب إلى غرفته واستلقى على فراشه منهكًا حتى سمع طرقًا بلطف على الباب وعندما قام لفتحه وجد نيروز هي الطارقة نظرت بعينيه وقالت:

- إن كان في الأمر شيء يسعد فهو أنني رأيتك مرة أخرى يا صديقي.

ودخلت إلى الغرفة وفكت وشاحًا عن شيء بيدها فوجده سيف جدته فبرق عينيه مستنكرًا ثم قال:

- كيف نسيته إنه لأمر مخزٍ.

- لقد كان الأمر أكبر من جدتك وسيفها.

- نيروز سأعاهدك عهدًا أرجو ألا تنقضيه.

- أخذلتك من قبل يا قيصر؟

- هل أخبرتِ أي شخص بما قاله أبي أو عن وجهتي القادمة؟

- لا أحد سوى شيراز.

فتنهد قائلًا:

- عظيم جدًا لا أريد أي شخص أن يعرف أي شيء عن الأمر حتى السيد صديق نفسه أرجوكِ عاهديني على ذلك.

- أعاهدك.

وأخذ منها السيف ودسه في فراشه.

رجع جيش شقيق الأميرة حور دون أي مكسب أو خسارة فلم يستطع الاقتحام أصلًا ليشتبك مع أحد، التزم الجميع بخطة السيد صديق سوى واحد من أبناء عم الأميرة حور أرسل رسولًا للملك مجد فكان رده أن ترجع الأميرة حور وحدها إلى سالمة وتعيش في قصرها كأي واحدة من العوام دون أي سلطة تذكر، فأخبرها بذلك فرفضت وأخبرت السيد صديق الذي لم يبالِ بالأمر قائلًا لن يضرنا ما فعل ابن عمك بل من الممكن أن يفيدنا في خطتنا وأكد عليها ألا يأخذ أي شخص قرارًا من تلقاء نفسه.

مرت الأيام تلو الأخرى والجميع في ضيافة الأمير قاسم الذي راوده القلق بعد بضعة أيام من اجتماع السيد صديق بهم فاصطحبه والأمير شكر في نزهة في مروج الواحة ووقفوا أمام بحيرة صغيرة ذات مياه صافية وبدأ الحديث قائلًا:

- عذرًا سيد صديق لقد فكرت في كلامك كثيرًا لكني مرتاب وصدري يملأه القلق، هل كل ما قلته هو خطتك الحقيقية؟ أم هناك شيء تخفيه؟ فنظر على امتداد الأفق صامتًا والأمير قاسم والأمير شكر ينظران له وينتظران جوابه حتى أجاب:

- لم يكن من الممكن أن أقول غير ذلك أمام الأميرة حور وأبنائك يا صديقي، فهي أم أضرمت النيران بصدرها وهم شباب تسيطر عليهم العصبية ونزعة المواجهة والقتال، لا أخفي عليكما سرًا، قد لا تسوء حالة سالمة فقد يأتيها التجار بحرًا وهذا طريق لن نستطيع قطعه عليهم، وأيضًا قد لا يشغل بالهم أمر حُكّامها فكم من مدن يقودها طغاة وتنعم بالرواج التجاري، ولكن خطتي هي أن أبتاع من مجد الطفلين كأي صفقة رقيق فهو محب للمال ويحتمي بمَن يحبون المال أكثر من أنفسهم لا تقلقا من شأن هذا إنني متأكد مما أفعله.

فرد عليه الأمير شكر قائلًا:

- إذًا لماذا يا سيدي كل هذا الانتظار فلنذهب الآن وندفع له ونأخذ الطفلين.

- إن طول المدة لسببين أولًا ليشعر مجد بالأمان ويقل إحساسه بأن الطفلين درع يحتمي به أما الثاني ليشعر أن لا حيلة لنا في حربه وأننا رغم طول انتظارنا لم نستطع اقتحام الأسوار، صديقاي العزيزان إن أي مشكلة لها عشرات الحلول التي تجتزها من جذورها لكنها من ضروب الخيال، هناك حل واحد متاح يمكن تنفيذه ودائمًا لا يعطيك الكثير مما تريده بل الضروري فقط، وهذا ما أريده الآن، أن نحرر الطفلين ثم نتدبر أمورنا لنتدارك ما تركناه.

فنظر له الأمير قاسم بإعجاب قائلًا:

- وهذا ما اعتدته منك يا صديقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

جاء الموعد الذي حدده السيد صديق بعد شهرين جُهزت الأموال وجهز الركب وشد الرحال كل من السيد صديق والأمير شكر ومائة فارس وسلكوا الطريق إلى سالمة، وعندما لاحت في مرمى الأعين أمر السيد صديق الفرسان بأن ينتظروا على مسافة تسمح لهم بالهجوم ولكن لا يلتصقوا بأسوارها، وتقدم هو والأمير شكر حتى وصلوا البوابة الغربية وهي أكبر البوابات فوجدها مقفلة ولا أثر لقدم بعير غائر في الرمال كدليل على دخول بضائع، بل آثار أحصنة على غير عادة تلك البوابة فهي البوابة الملائمة لمرور التجارة، نظر إلى أعلى السور فلم يجد حراس المراقبة فابتسم قليلًا وشعر بالأمان الذي يشعر به مجد الآن وعرف أنه لا يبال بمَن هم خارج المدينة فهو ملك على أفضل المدن تحصينًا في الجوار.

طرق الباب بمقبض خنجره ففُتح في الباب نافذة صغيرة لا تظهر أكثر من عيني من فتحها وسألهما.

- مَن أنتما؟

- أخبر قائدك أن صديق الأبيض يريد مقابلة الملك.

- انتظر حتى يأتيك الرد.

انتظرا طويلًا قبل أن يرى السيد صديق أحد الجنود ينظر من فوق السور ثم فتحت البوابة ليشاهدا قائد الجنود يقف وسط أربعة من جنوده ناظرًا بحدة للسيد صديق تملأ ملامحه بسمة يخالجها الغرور، وبعد أن صمت برهة قال: - صديقي العزيز، أهلًا بك في سالمة.

فابتسم السيد صديق بسمة تغلفها السخرية قائلًا باستنكار: - (مريد) لم أتوقع أنه جيشك، هل صار ثمنك بخس لهذا الحد يا رجل؟

فضحك مريد قائد المرتزقة ضحكة عالية وخرج لمصافحة السيد صديق وعناقه.

وبعد أن تعانقا نظر له مريد قائلًا:

- صدقني لم أدرِ أنها مدينتك قبل أن أهاجمها.

فابتسم السيد صديق ثم قال:

- حتى إن كنت تعرف يا رجل ما كنت لتتردد لحظة في مهاجمتي فأنت لص حقير وأنا أعلمك جيدًا.

فضحك مريد ضحكة عالية ثم قال:

- ما زلت كما أنت لم تتغير لكني ما زلت أحبك يا صديقي.

فنظر السيد صديق للأمير شكر الذي ينظر لهما باستغراب وقال: - إنه مريد صديق قديم ترافقنا طويلًا نحن وبضع من الأصدقاء عند بحر الملح، كانت أيام جميلة قبل أن نفترق بسبب اختلافي معهم في الطريقة، وها قد جمعتنا أيام عفنة ما كنت أريدها.

فقهقه مريد قائلا:

- لكنك كنت بارعًا وتفوقت علينا جميعًا وصنعت مدينة عظيمة ومجدًا لك ستتناقل أخباره الأجيال.

- ولكن كيف تكون أنت القائد؟ أين باقي الأصدقاء؟ لقد كنت أحقر مَن بينهم، كيف يولونك عليهم؟

فانفجر مريد بالضحك ثم قال وهو يلفظ أنفاسه إثر الضحك: - يا رجل لا توبخني أمام جنودي، لقد قُتل الأصدقاء جميعًا ولم يبقَ سوانا أرأيت سخرية القدر؟ ما بقي سوى الأعظم والأحقر - وتنهد طويلًا كأنه يسترجع الأيام الماضية - ثم سأله: ما سر زيارتك يا صديقي، أمن أجل الطفلين؟

- واعجباه لقد أصبحت ذكيًا يا رجل، ستعرف كل شيء أمام الملك.

- إنه أمر صواب ولكن لا توبخني أمامه - وهمس في أذنه - فأنا أعامله باستعلاء.

فنظر صديق في عينيه مستنكرًا فأومأ مريد برأسه وضحكا الاثنين.

دخل كل من السيد صديق والأمير شكر إلى سالمة بصحبة مريد وجنوده، كان أول شيء لفت انتباه السيد صديق هو عدم وجود وثيقة قوانين سالمة التي كانت معلقة داخل البوابات، فسأل مريد عنها فأخبره قائلًا: - لم تعد مناسبة لعهد سالمة الجديد فكل شيء تغير يا صديقي العزيز.

فنظر صديق بحسرة إلى حيز البوابة الذي كان يعج بالتجار والمارة والآن شبه خالٍ من الناس سواهم وأكمل طريقه حتى وصلوا إلى الميدان الكبير فوجد الساحة المرصوفة بالحجارة يكسوها الغبار وروث الأحصنة، كل شيء في الميدان قد تغير ما عاد يقصده الناس كسابق عهده حتى الحمائم قد هجرته، قناديل الأعمدة محطمة والأوشحة ممزقة ذابلة كذبول كل شيء في المدينة فقد هجرها النسيم كما هجر الميدان واحتلته رائحة نتنة رائحة الروث وعرق العاهرات، وقف السيد صديق بجوار البئر ونظر والدمع يكاد يذرفه إلى داخل الحانات فوجدها تعج بالفوضى والعربدة، رجال تتخبطهم الثمالة ونساء شبه

عاريات، لا شيء يقدم في الحانات لا عروض ولا موسيقى، لا شيء سوى الخمر والنساء وبينما ترن ضحكات العاهرات وصيحات الرجال في أذن السيد صديق، فاجأه صوت من بعيد يقول: - الآن عرفت يا سيدي لماذا صنعت الجنوب.

فنظر الجميع ناحية الصوت فوجدوه عابد يتقدم ناحيتهم، فأشار لهم السيد صديق بأن ينتظروا في أماكنهم وتقدم لمقابلته على مسافة منهم، وبعد أن تعانقا سارا قليلًا ووقفا بالقرب من باب الحانة وسأله السيد صديق: - ماذا عرفت يا عابد؟ أخبرني ما الذي حل بالمدينة من بعدي وكيف تسمح بما يحدث في حانتك من فاحشة؟

نظر عابد إلى الحانة ثم بدأ الحديث قائلًا:

- لم تعد حانتي لقد بعتها بأبخس الاثمان لست أنا مَن يقبل أن يكون قوادًا لقد تغير كل شيء يا صديق، لم تعد سالمة مقصدًا للحالمين بالجمال والرقي بل صارت مقصدًا للماجنين، لقد ذاع صيت المدينة بأنها مرتع للعاهرات وذلك كله في وقت قصير جدًا أقصر بكثير مما فنيت عمرك من أجله بأن تكون أجمل وأرقى المدن - ثم أشار إلى الحانة – وأردف: أتظن أن كل هؤلاء الرجال جنود مريد؟ لا يا صديقى إنهم غرباء جاءوا جميعًا من أجل العاهرات لا من أجل الحرب.

- ومن أين جاءت العاهرات؟

- أخانتك ذاكرتك؟ ألا تذكر أن كل أصحاب الحانات عداي كانوا قوادين وأن كل مَن لديهم من راقصات كانوا عاهرات، ألست أنت مَن حررتهم بنفسك من هذه المهنة البغيضة، صدقني لم يفكروا كثيرًا بأن يعودوا إلى سابق عهدهم، ألا تذكر حين شجعتني بأن أشتري حانة وأكون مثالًا جيدًا لهم لكي يحترمهم الناس وبالفعل صدقت فيما كنت ترنو إليه على الرغم من انتقاد الناس لي، ولكن بعد وقت قصير صارت مهنة محترمة، أنسيت أم أن هول ما حدث قد أنساك، آه كم من المؤسف أن ينتكس أمرًا أفنيت عمرك من أجله، ولكن دعني أكون صادقًا فالطلب على العاهرات كثير جدًا، الأمر الذي جعل الملك يطلب من مريد أن يدعو عاهرات من خارج المدينة للعيش فيها لأنها مصدر الرزق الوفير بعد أن قل التجار، بالإضافة إلى بعض المكاسب التي تجنيها المدينة من صيد اللؤلؤ، ولكن كل هذه المكاسب هي من نصيب الملك ومريد وجنوده، أما عن أمر الجنوب الذي أخبرتك أني عرفته فهو لأن سكان المدينة الشرفاء منهم فقط قد بارت تجارتهم ولم يجدوا المال الوفير للعيش في المناطق الراقية وقد خوى الجنوب من التجار فانتقلوا جميعهم إلى الجنوب، أليس هذا ما خططت له حين صنعت الجنوب، أن يجد الفقراء مكانًا لهم بعيدًا

عن آمال الآخرين للعيش في أماكن راقية، وهذا ما حدث اذهب للجنوب وتجول لن تجد جنديًا واحدًا أو عاهرة، فالجنوب الآن هو أرض الشرفاء لقد انقسمت المدينة إلى اثنين حتى أنا الذي كنت أعد من أثرياء سالمة أقطن الآن بالجنوب لكي أوفر نفقات العيش، بعت بيتي وحانتي قبل أن يأخذوهما مني عنوة فهما مطمع لهم وقد فعلوها مع الكثير الذين صاروا بلا مأوى فاتجهوا للجنوب.

فنظر السيد صديق إلى الأرض وصدره يملأه الحسرة وتذكر أم سالم العجوز التي تظن نيروز أنه يذهب إليها من أجل جسد أرملة ابنها ثم رفع ناظره في عيني عابد وسأله عنها قائلًا: - وبعد تدهور حالك يا عابد هل تعتني بأم سالم التي كنا ننفق عليها؟

فضحك عابد قائلًا:

- أنا جارها الآن لقد صار حفيدها اليتيم يحبو، لا تقلق على الرغم من ضيق العيش ما زلت أنفق عليها، أما عن أرملة ابنها فهي تملأ جرار الماء لبعض بيوت الأثرياء سابقًا التي لم تعتَد نساؤها على الخروج لملء الماء لكي تساعدني في النفقات.

نظر السيد صديق باتجاه البئر وتنهد ثم قال:

- انتظرني هنا سأذهب إلى مجد وأعود لأزورها.

وصل السيد صديق ومن معه من الجانبين إلى قصر الملك، كان يتوقع أن يستقبله نائل لتعظيم الملك لشخصه واستعراضًا لمكانته الجديدة التي حاز عليها، لكنه لم يجده في استقباله بل وجد الملك نفسه يستقبله بحفاوة يستتر وراءها الخجل والخزي مما قد فعل في المدينة، لم يصافح الملك السيد صديق بل أقبل عليه وقبله في كتفه قائلًا: - أهلًا بعودتك يا سيدي.

فرد عليه السيد صديق بوجه تملأ ملامحه الحدة قائلًا:

- أنا لم أعد ولن أعود، هنيئًا لك بالمدينة فهي إرثك الشرعي يا بني، إن كان أبوك قد قبل بوجودي فهذا أمر لست ملزمًا به، وإن كنت طلبت مني الرحيل ما كنا اختصمنا - ثم نظر لمريد وأردف - حوار كان يغني عن وجود مريد بيننا، ولكن دعك من هذا كله لا فائدة للعتاب من أجل العتاب، إن كانت الكلمة لن تجدى نفعًا فمن الأحرى أن ينغلق فمك قبل النطق بها.

فخفض مجد ناظريه إلى الأرض ثم تلفت السيد صديق يمينًا ويسارًا سائلًا: - أين نائل لأهنئه على المكانة التي حازها؟

فأجابه الملك:

- لقد قُتل!

فنظر السيد صديق إلى مريد مستنكرًا وأجابه مريد قائلًا: - لقد قتلته إحدى العاهرات الغريبات عن المدينة وهربت ولا ندري ما السبب.

فهز السيد صديق رأسه قائلًا:

- إن القدر لا يظلم أحدًا، إن المرء ينال ما يستحق حتى وإن تعجب الجميع من ذلك المصير، دعونا من ذلك كله لقد جئت من أجل الطفلين، أعلم يا مجد أنك تعلم مَن هو صديق وأنك لن ترفض لي طلبًا ولكن أيضًا لكل شيء ثمن، أرى أن المدينة والقصر في حاجة إلى المال وقد جئتك به مقابل حصولي على الطفلين، وأظن أن لديك جيش يحميك ما عاد الطفلين درعًا تحتمي به، وأنت تعلم كما يعلم الجميع أنكِ ملك أفضل المدن تحصينًا، فلننهِ ذلك الأمر دون جدال أو نقاش لأن هناك أم قلبها ينفطر وتنتظر عودتي بالطفلين على أحر من الجمر، لا تفكر كثيرًا يا بني، إن هناك مائة فارس خارج الأسوار لن يستطيعوا اقتحامها حتى وإن ذُبحنا هنا.

فرد مجد بلهفة قائلًا:

- حاشاك يا سيدي أن تظن بي ذلك فأنت مَن ربيتني، حتى وإن كنت أخطأت فذلك لا يعني أني قد أفكر يومًا أن ألحق بك الأذى. - نظر مجد في عيني مريد فأومأ له بالموافقة - فأردف قائلًا: لك ما طلبت يا سيدي، لكن ليس قبل أن تمكث ليلتين أو ثلاثة في المدينة لأرد إليك جميل ما صنعت لي.

فنظر له السيد صديق قائلًا:

- أنا لا أحب العاهرات ولا اللؤلؤ ولا أرى في المدينة سواهما، هيا يا مجد فأنا على عجلة من أمرى.

فخفض مجد ناظره إلى الأرض قائلًا:

- إذًا فأنت لست راضٍ عني ولن تسامحني، فلتكن ليلة واحدة يا سيدي حتى لا أشعر بالذنب طوال عُمري.

فاقترب مريد من السيد صديق وهمس في أذنه قائلًا:

- إن كنت قلقًا من أي خطة غدر قد تحيط بك فلا تقلق فأنا لن أدعك له بالتأكيد.

- حسنًا يا مجد سأرتاح الليلة فقط وسأرحل في صبيحة الغد، فليذهب الأمير شكر لطمأنة الفرسان ويعود ليرتاح من عناء السفر ولتأمر بحضور الطفلين ليلتقيا بخالهما.

- لك ما طلبت يا سيدي وسأشرف بنفسي على تحضير غرفتكما للإقامة الليلة.

- لا سأنام في منزلي لأودعه جيدًا ولأحزم أمتعتي الشخصية لأخذها معي إلى وجهتي القادمة، فإن هذه الليلة ستكون آخر ليلة لي في المدينة ولتأذن لي بالذهاب الآن لأزور وأودع بعض الأصدقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

خرج الأمير شكر لطمأنة الفرسان وذهب السيد صديق ومريد لمقابلة عابد وفي طريقهما قبل أن يلتقيا بعابد سأله السيد صديق: - لماذا قتلت نائل؟

- لا أحبذ التعامل مع غير الشرفاء، حقيقة أنني لص لكني تعلمت أن مَن غدر بغيرك سيغدر بك، وأنا لا أحب أن يُغدر بي، ما أجمل التعامل مع الشرفاء يا رجل، ولكن الدنيا لا تجود بما نتمنى دائمًا.

- صدقت يا مريد، فلتتركني الآن لأقابل بعض الأصدقاء الذين لن يرحبوا بوجودك معي.

فابتسم له مريد قائلًا:

- كما تحب يا صديقي.

التقى السيد صديق بعابد فسأله بلهفة:

- هل وافق الملك بتسليمك الطفلين؟

- دون جدال.

فاستنكر عابد قائلًا:

- بهذه السهولة؟

- لقد ضاقت الدنيا به وأحس بالورطة التي أوقع بها نفسه وأن عجوزًا فقيرة ترعى أحفادها اليتامى آمنة على نفسها وأحفادها خير من ملك قلق أن يرفع صوته على قائد جيشه، لقد أحس أنني ملاذه الوحيد حينما يغدر به مريد.

وصلا إلى بيت السيدة العجوز أم سالم فأقبل عليها السيد صديق وقبل جبينها ويدها فضمت رأسه إلى صدرها واضعة كفها أعلاها وتمتمت بدعوات بصوت غير مسموع حتى كاد السيد صديق أن يغفو على صدرها، وبعد حديث طال عن حالها وحال عائلتها الصغيرة طلب منها السيد صديق أن ترحل معه هي وعائلتها للبحيرة الخضراء فهناك ستكون بحال أفضل، فرفضت وعندما ألح عليها أخبرته قائلة: - لا يمكنني يا بني، إن أرضًا دفن بها أهلي لا يمكنني أن أتركها أبدًا، إنهم وإن صاروا جيفًا يشعرون بنا وهم بالقبور، إن أرواحهم تطوف بي كل ليلة وأخاف إن أطلت عليها بالسفر إلى أرض بعيدة تهجرني ولا تأتي، إن ما يبقى من مواساة المرء بعد أن يواري جسده الثرى هو أن يكون ثرى أرضه، فهو دفء لم يشكو البرد ومأمن للخائف.

جاءت كلمات أم سالم طعنة في قلب السيد صديق، فهي وإن كانت عجوز هرم فعلت ما لم يفعله في ريعان شبابه.

خرج السيد صديق من بيتها بعد أن أعطاها مالًا كثيرًا يكفيها لعام كامل وتجول في شوارع الجنوب برفقة عابد فوجد فعلًا أن كل الشرفاء في الجنوب، فسأل عابد عن الجنود الذين أسروا فأخبره أن الملك قد عفا عنهم بعد أن نزع منهم السلاح وتركهم يعيشون في الجنوب ليس كرمًا منه ولكن حتى لا يكلفوه نفقات المأكل والمشرب في السجن، ووضع كفه على كتف السيد صديق قائلًا: - لا تخف على صهر صاحبنا فهو في مأمن وزوجته.

فسأله السيد صديق قائلًا:

- عابد، أمتأكد أنت أن لا شريف خارج الجنوب؟

- مثلما أراك أمامي الآن، ولكن لماذا؟

- باقي عشر ليال على اكتمال القمر، ربما تعرف وقتها ولكن ليس قبل أن أستشير شخصًا مقربًا لي.

في ذلك الوقت كان قد رجع الأمير شكر إلى قصر الملك ورافق أبناء أخته في غرفة نومهما ليطمئنهما أن كل شيء بغيض قد انتهى.

وذهب السيد صديق إلى منزله الذي وجده كما تركه تمامًا بيد أن الاشياء يكسوها الغبار، دخل مسرعًا إلى غرفته الخاصة متجهًا إلى تمثال السيدة ألارا وأحضر قطعة قماش وأزال من عليه الغبار وجلس على كرسيه ينظر إليه قائلًا: - مر وقت طويل لم ألقِ إليكِ همومي كما اعتدت كل ليلة، لكن اللوم كله عليكِ، لماذا لم تزوريني بالمنام، أصرتي بخيلة عليّ برؤيتك يا ألارا؟

وصمت طويلًا ساكنًا في مكانه، ثم قلب ناظريه في زوايا الغرفة، ثم وقف وجر كرسيه أمام آلته الوترية الضخمة وشمر أكمام ثوبه وطقطق أصابعه وعنقه وبدأ بالعزف، كان لحنًا عظيمًا يملأه الشجن يهيم بالروح وخبايا النفس ويسافر بهما إلى ذكريات الماضي السحيق بحلوه ومره، ظل يعزف وهو هائم كأنه مرتفع عن الأرض تطوف به أرواح ملائكية تطير به إلى حيث كان يحلم، وكلما زاد اللحن شجنًا تذكر ماضيه، تذكر بسمة تبادلها هو وألارا الشابة خلسة بين جموع الناس في احتفالات الربيع، تذكر وهو يداعب بطنها حين أخبرته أنها حبلى، تذكر حين كف قلبه عن النبض عندما كان يداعبها لتستيقظ فوجدها قد فارقت الحياة، تذكر كف أخيه الأكبر على كتفه وهو يودعه ويقول له: ارحل إن أردت ولكن عدني بأن تعود ولا تقلق ستجد إرثك في أمان، حتى إن مت قبل أن تعود ستجد أبنائي يحفظون إرث عمهم.

ظلت الذكريات تجوب صدره ومخيلته البعيدة القاع، حتى خفت اللحن وانزوى إلى ركن بعيد في حنايا القلب، وانتهى بصفير وتر رفيع يملأه الأنين ويستبيح في قلبه البسمات.

رفع كفيه عن الأوتار وظل يقلب عينيه في زوايا الغرفة كأنه ثمل وغاص في نوم عميق، استفاق كما ظن على يد السيدة ألارا تداعب شعره، فسحبها من يدها الأخرى وأجلسها على ركبته ما بينه وبين الأوتار، فداعبت الأوتار بأصابعها الرقيقة برفق فأصدرت نغمات كأنها تزغرد، مسح بكفه جبينها وشعرها حتى الأطراف فاستقرت الكف على خاصرتها الرشيقة كعنق انحسار الرمل في ساعة رملية ما بين ردف وصدر، ثم نظر إليها والشجن يملأ عينيه قائلًا: - لقد اشتقت إليكِ كثيرًا.

فأجابته برقة ودلال قائلة:

- لو كان حقًا ما كنت تركتني كل هذا الوقت.

- أنتِ تعرفين ما حدث بالمدينة ما كنت أستطيع الرجوع قبل أن أتدبر أمري.

- لم أتحدث عن ذلك الوقت بل عن خمسة وثلاثين عامًا مضت، إنني أشعر بالغيرة يا حبيبي، أأم سالم تحب أهلها أكثر من محبتك لي؟ عد إليّ فإن قبري بجوار النهر يشتاق إلى لمستك - ثم ابتسمت بسمة يملأها الدلال قائلة - ألم تشتاق إلى النهر، أم أنك نسيت أنهم أسموك باسم إله فيضه؟

ثم قامت من على ركبته ومشت بعيدًا ثم التفتت سائلة: هل سترجع؟

فرد بانكسار: لا أستطيع يا ألارا، وكيف الرجوع إذن؟ إن رجعت فأنا بحاجة للإجابة على سؤال مؤجل منذ خمسة وثلاثين عامًا، لما رحلت أصلًا؟ وهذا سيأخذني إلى سؤال أبعد منه، لما أجلت الرحيل؟ لقد كنت انتوي الرحيل قبل أن أراكِ لأول مرة ولكني ألغيته من أجل أن أكون بجانبك، حتى جمعتني الأقدار بك، وحين رحلتِ عن دنيانا لم أجد ملاذًا لي غير الرحيل، إن مَن جمعته الأقدار بمَن يحب يشعر أنه امتلك الدنيا ويكتفي به مجدًا ولن يصنع شيئًا يذكره الناس، أما أنا فقد صنعت مجدي هربًا من الموت، لأني لم أجد شيئًا من بعدك يستحق الحياة سوى نفسي، لقد صادف ريعان شبابي ذبول الوطن ولم يكن للرحيل بديل يا ألارا.

- وهل الوطن حانة أزعجتك رداءة نبيذها فهجرته؟ إن الوطن وإن ساءت أحواله يستحق النضال من أجله لا أن ترحل وتتركه مرتعًا للغوغاء، وها أنت قد بنيت بغير أرضك فاستردت الأرض وضاع المبنى، ارجع وابنِ بأرضك حتى وإن كان كوخًا صغيرًا، لن يستطيع بشرًا سلبه منك إلا بتقصيرك، ولكن لا تأتيني قبل أن تهدم كل ما فعلت، إن ما فعلته من أجل أن يكون شاهدًا على

الحضارة والجمال كما فعل أجدادك صار مروجًا للعهر والقبح، اهدمه ما استطعت حتى لا يلتصق مجدك بعارهم، سأنتظرك وأعلم أنك ستفعلها.

بزغ الصباح واستيقظ السيد صديق وقد أخذ قراره خلال نومه، ما لبث إلا قليلًا حتى سمع طرقًا على الباب فوجد مريد يصطحب بعيرين وبعضًا من الرجال قائلًا جئنا لنساعدك في حزم أمتعتك، رحب بهم وأمرهم بتوخي الحذر وأشرف على حمل الأمتعة على البعير عدا تمثال السيدة ألارا حمله بنفسه رغم ثقل وزنه لكنه أصر ألا يلمسه غيره.

ثم أمرهم بالخروج حتى يودع المنزل وفتح الغرفة التي بها المسحوق المنفجر الذي صنعه بنفسه وحمل عشرين زلعة منه قسمهم إلى مجموعتين وأفرغ كل مجموعة منها ببعض ثيابه القديمة حتى اختفت تمامًا داخل الثياب، ثم استدعى الرجال وأمرهم بنقل ما يستطيع أن يحمله بعير من تلك الزلع، ثم استدعى مريد قائلًا: - صديقي العزيز رغم اختلافنا ما زالت صداقتنا القديمة باقية، أنت تعرف أنني جئت من حضارة مولعة بالفلك والنجوم، ورحيلي عن مكان ظننت أنني سأحيا وأموت فيه فأل شؤم، أريد منك أمرًا تفعله من أجلي.

فرد مريد وقد أخذه عنفوان النبل والشرف قائلًا: - اطلب ما شئت يا صديقي فإن أمرك مجاب حتى لو على اجتزاز عنقي.

- باقي عشر ليال على اكتمال القمر، عندما تنظر في السماء وترى القمر صار بدرًا احمل هذه الثياب وما تحتويها من متعلقات داخلها تثقل وزنها وضعها بجوار السور من الناحية الغربية ثم احمل المجموعة الأخرى وضعها بجوار البئر، وبعد أن تفعل هذا أشعل النيران بهذا المنزل أولًا أشعلها بباب المنزل، ولكن احرص أن تكون كافية لتلتهم النيران المنزل كله ثم اذهب مسرعًا وآمر اثنين من جنودك بإشعال النيران بالثياب التي عند البئر والسور في وقت واحد لا تشعل بواحدة ثم تذهب للأخرى أحذرك يا مريد - ثم نظر في عينيه وسأله بحدة ونزعة الصداقة والأخوة تملأ نبرة صوته ووضع يده على كتفه وأردف - هل يستطيع صديقي العزيز فعل هذا من أجل صديقه؟

فأجابه مريد قائلًا بحدة ولوم:

- هل تظن بصديقك العزيز غير ذلك، اذهب واطمئن على ما تركت لي، إن الفأل الحسن سيحالفك طوال ما تبقى من عمرك.

فربت السيد صديق على كتفه قائلًا:

- هكذا تكون الصداقة.

وتعانقا بحرقة ثم انصرفا إلى الخارج.

ودع السيد صديق الملك وأخبره قائلًا:

- إن احتجتني ستجدني يا بني، إن مريد صديق قديم وقد أوصيته عليك خيرًا.

وصلوا إلى أرض البحيرة الخضراء بعد سبع ليال كان قد سبقهم أحد الفرسان ليبشر المنتظرين بالأمر، حيث أقاموا حفلة كبيرة على شرف السيد صديق، كانت تلك الليلة هي ليلة رجوع الأميرة حور إلى سابق عهدها من القوة والصلابة، بيد أنها أدركت أن قوتها الحقيقية تكمن في الأهل والأصدقاء الحقيقيين، وقفت بكامل عنفوانها الأنثوي الطاغي وشكرت جميع مَن ساعدوها، وخصت بالشكر السيد صديق وما فعله من أجلها ثم شكرت قيصر قائلة: - أما أنت يا قيصر فإنك تشعر في قرارة نفسك أن كل ما حدث لنا كان بسببك، فعلًا يا صديقي لقد كان بسببك، لكن الجانب الحسن منه، لولاك لأمضينا عمرًا طويلًا في وهم كنا نحياه، العيش بعيدًا عن الوطن والأهل إنه لأكبر وهم عشته، شكرًا لك يا صديقي لأنك أفقتنا جميعًا وشكرًا لأنك لم تتخل عنا وألغيت رحلتك برغم ما حولك من مخاطر وتضامنت معنا حتى وإن كان تضامنًا روحيًا فوجودك في صفنا كان يعطيني دائمًا الأمل، فبالرغم من كل العقبات التي واجهتك في حياتك لم تهزم أبدًا، وكان ذلك فأل خير لنا جميعًا، يعز عليّ أنك انتويت الرحيل غدًا كما انتوى السيد صديق كأن وجهتكما واحدة ولكن بطريقين مختلفين، شكرًا لكما وشكرًا للقدر الذي أوجدكما في حياتي فأنتما أعظم مَن قابلت، وأشكر لك يا قيصر ثقتك الغالية بأن تترك لنا نوح الرضيع، فإنه بالتأكيد القرار الأكثر صوابًا، أعدك أنه سيكون أميرًا بيننا وسيحظى بكل مزايا الأمير قصي لعلك ترجع مرة أخرى فتجد له جيشًا وقلعة خاصة به لا ينازعه عليهما أحد.

فصفق الجميع لهذا القرار وهزت نيروز نوح الذي في أحضانها وقبلته ثم تقدمت تجاه الأميرة حور قائلة: - سيدتي أرجو منكِ أن تقبليني في القصر لأهتم بنوح وأرعاه.

- لا بد أن تبقي، تلك وصية أمه.

ثم بدأ الحفل وما يتخلله من رقص وغناء لم يشارك فيه قيصر ولا نيروز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

وفي صباح اليوم التالي كان قيصر قد حزم أمتعته واطمأن على سيف جدته ودسه وسط المتاع على جواده الأسود حتى لا يراه أحد أو يكون ملفتًا للنظر، وبينما يسقي جواده الماء استعدادًا للرحيل أتته نيروز لتودعه وتذكره إن كان قد نسى شيئًا مما أخبره به والده.

وقفت بجواره تدلك غرة الجواد ثم قالت:

- هل تذكر كل شيء؟

- نعم، ولكن لا تخبري أحدًا إلا للضرورة، إن احتجتموني معينًا لا إن ظننتم أني أحتاج معينًا.

- هل تذكر الأسماء جيدًا؟ قيصر لا تبدل وجهتك عن إسكندرية مصر هل تذكر اسم جدك الأصغر لعله هو الباقي منهم على قيد الحياة، أتمنى أن يكون قد عرف القصة كاملة، أخشى أن تكون القصة اندثرت ولم تتناقلها أجيال عائلتك، وقتها ستكون في مشكلة.

- كيف أنسى؟ حابى أوزيري رجل ذو عيون زرقاء تلك تفاصيل لن أنساها أبدًا.

في ذلك الوقت وعلى جانب آخر من حديقة القصر.

نظرت الأميرة حور في عين السيد صديق تمازحه قائلة:

- سأشتاق إلى تلك العيون دائمًا على أمل أن تجمعني بهما صحبة مرة أخرى.

فتبسم السيد صديق واستحى فاركًا بأصابعه جرحًا قديمًا فوق حاجبه ثم قال:
- ستشتاق تلك العيون لجمال لن تشاهد أبهى منه مهما ارتحلت.

وبينما يتبادلان المزاح جاء كل من الأمير قاسم والأمير شكر ليودعا السيد صديق، وبعد أن عانقاه أقبل عليهم قيصر ليودعهم.

وبعد أن تبادلوا الأحضان والسلام وصار السيد صديق وقيصر جاهزين للرحيل أخبرهم السيد صديق قائلًا: - عندما تنظرون للسماء وتجدون البدر قد اكتمل سيكون سور سالمة الغربي جاهزًا للاختراق وستكون المدينة تحت سطوة النيران وألسنة اللهب إنها فرصة إن أردتم السيطرة على سالمة واسترداد إرث الأمير قصي، ولا أريد أن أعرف نواياكم لأني لا أنتوي الرجوع، ومعكم بعض من المسحوق المنفجر ولكن كمية قليله منه هذا ما استطاع البعير حمله كونوا حذرين في استخدامه ستحتاجونه لتكون لكم الغلبة عليهم، لقد تركت هناك ما يكفي لهدم جزء من السور، إنه آخر شيء أفعله للمدينة هو أن أتركها منكوبة لكي لا تكون مقصدًا للماجنين، هذا أمر يرجع إليكم إن أردتموها

هاجموها وابنوها من جديد وإن لم تفعلوا ستبقى شاهدة على مصير مَن يبدل الجمال إلى قبح.

وصل كلا من السيد صديق وقيصر إلى مفرق طرق وقفا عنده ونزلا من على جواديهما وسحب كل منهما حصانه إلى طريق باتجاه مختلف.

ثم سأل قيصر السيد صديق قائلًا:

- لماذا كنت شاردًا الفكر طول الطريق كأنك تريد أن تتذكر شيئًا قد نسيته؟

ضحك السيد صديق ثم قال:

- لقد كنت أريد أن أخبرك بأنني تفوقت عليك عزفًا، لقد قضيت ليلتي الأخيرة في سالمة قبل أن تصبح ركامًا في عزف لحن خيالي لكني حين استيقظت وجد نفسي ناسيًا كل ما عزفت كأن اللحن صار ركامًا كالمدينة - ثم ضحك وأردف - لقد كنت أريد أن أفحمك بلحني، لكن كيف الوصول وقد نسيت الدرب؟

أحس قيصر أنه قد سمع مثل كلامه من قبل حتى قطع السيد صديق حبل أفكاره قائلًا: - دعك من هذا كله، أما زلت مصرًا على سلك طريقك وحدك؟

- لقد أخبرتك أسبابي وأظن أنك مَن علمتني إياها، ولكن قبل أن نفترق أريد أن أطيل معك الحديث لعله آخر حديث بيننا، منذ قليل أخبرتنا أن سالمة ستُحرق كيف وأنت بعيد عنها.

- لقد خدعت صديقًا قديمًا لي، إنه قائد المرتزقة وسيقوم بنفسه بإشعال النيران في المسحوق المنفجر في بيتي، إنها خدعة كان لا بد منها.

- وهل من الحق أن تخدع صديقًا لك؟

- إنه يتبنى منهجًا باطلًا، إنها قضية أزلية يا بني، الصراع بين الحق والباطل، إن الباطل للزوال لا محالة ولكن إياك أن تستهين به، إنه أقوى مما تتخيل، إن الحق أقوى ما خلق الله على تلك البسيطة ولطالما كان الباطل ندًا شرسًا للحق بل يتغلب عليه في أمور كثيرة إلى أن ينتصر الحق في نهاية الأمر بقدرة خالقه لا بقدرة أصحابه، فأصحاب الباطل حجتهم شرسة غير شريفة ومن الجهل أن تعاملهم بشرف، إياك أن تعد لهم ما أعددته لشريف لأن ذلك سينال منك ولن ينال منهم شيئًا، إن خداع غير الشرفاء لهو حق مهما ظنوه الناس غدرًا، إن أقوى المعارك هي تلك التي لا تحسم بالقوة.

هز قيصر رأسه ثم سأله هل لي بسؤال أخير فأومأ له السيد صديق بالموافقة فسأله: - حين تقابلنا لأول مرة سألتني عما أبحث في رحلتي وقلت لك كذبًا

الحكمة، لكنها صارت قضيتي بعدها، والآن أريد أن أعرف عما كنت تبحث أنت؟

فتنهد السيد صديق ونظر إلى الأفق البعيد وقال:

- كنت أبحث عن نفسي ولم أصل، لقد خضت معاركي وحدي وربحتها جميعًا، لكنها لم تكن غايتي بل إنها معارك أوجدتها الحياة في طريقي رغمًا عني لم أخطط لاجتيازها، فحين تجد نفسك أمام النهاية تصنع المستحيل لتقذف بها بعيدًا حيث لا تراها عيناك، لكنها موجودة لا محالة، إن العيش متملصًا من جذورك لهو سراب مهما كان مثمرًا، لا تعاند القدر يا بني وعش حقيقتك مهما كانت جرداء، صدقني إن ناضلت من أجلها سيأتي وقت وتعج أرضك الجرداء بالأنهار، وها أنا من بعد طول ترحالي وتجربتي لم أحصد شيئًا مما خرجت من أجله، هجرت وطني بعد موت رفيقتي ظانًا بأني يمكنني أن أستبدله أو أصنع غيره، فلطالما سمعت عن أمجاد أجدادي وحلمت أن أصنع مثل صنيعهم، لكن الأوطان لا تصنع يا بني، إن الوطن هو مَن سمع صراخك واحتضنك حين تخلى عنك بطن أمك ولفظك إلى ذلك البراح الفسيح وحدك، الوطن هو أحن ترابًا على جيفتك، الوطن كالموت؛ واحد في العمر لا يمكن أن تستبدله مهما جافاك ومهما أكرمك الترحال.

- وهل سترجع إلى وطنك؟

- نعم، ولكن أمامي رحلة طويلة جدًا قبل العودة.

- إلى أين؟

- لدي رجال في كثير من البلدان والمناطق كانوا يعملون لحسابي مثل رماح، لا بد أن أذهب لهم جميعًا لأعطيهم أجر خدماتهم.

- ستبقى قدوتي مهما مر الزمن.

قالها قيصر ثم أدار ظهره ليمتطي جواده ويرحل قبل أن يفاجئه السيد صديق قائلا: - أنا صديقه الذي رأى فيك شيئًا مني.

فألتفت له قيصر ببطء وهو يفكر قائلًا:

- مَن تقصد؟

- أنت تعرف جيدًا مَن أقصد، ألم يخطر في بالك لماذا أرسلك الشيخ حزام إلى عامر زوج ابنته، لقد كان من الممكن أن تدخل سالمة كأي شخص فالبوابة الغربية كانت مفتوحة ليل نهار، لقد أرسلك له حتى يعرفك ويخبرني بك وكان ينتوي أن يرسل لي رسالة لأذهب لعامر وأسأله عنك لكن الأقدار شاءت أن أكون خارج المدينة وأقابله على المفرق، إنه لم يخبرني بأن اسمك

الحقيقي قيصر ولا أدري إن كان يعرف أم لا، لكنه أخبرني أنه يراني فيك وأنك ستكون في يوم من الأيام مثلي، وحين قابلتك لم أرَ ذلك أبدًا، لكنني أحببتك بصدق وعاملتك بدافع حبي لا من أجل وصيته.

ابتسم قيصر ثم قال:

- لقد أخفيت عني الكثير مثلما أخفيت عنك، وتعلمت منك الكثير أيضًا، إني مدين لك بحياتي وبما تعلمته منك.

فهز السيد صديق رأسه متبسمًا، وصمتا لبرهة، ثم نظر قيصر إلى الطريق الطويل وتلفت حوله مشتتًا، ثم قال: - إنه الوداع إذن، أتمنى أن نلتقي مرة أخرى وقد انتهى ما يمنعني من صحبتك.

ولوح له بكفه خشية البكاء إن تعانقا وسحب جواده ومشى بضعة خطوات قبل أن يقول له السيد صديق: - يا بني، عانقني فلا ندري ما في جعبة الأقدار، قد لا يكفي ما تبقى من عمري للقاء مرة أخرى.

فرجع قيصر مسرعًا وتعانقا عناقًا حارًا، ثم نظر في عينيه باكيًا وامتطى جواده وغادر مسرعًا.

مر وقت طويل أنهى فيه السيد صديق رحلاته لرجاله، بيد أن بقيت رحلة واحده قبل العودة لوطنه، ولكن هذه المرة لصديقه الشيخ حزام في مكة، وبعد رحلة طويلة وصلها أخيرًا، ظل يتجول سائلًا المارة عن صديقه الشيخ حزام، حتى دله أحدهم على مكانه، كان جالسًا أمام الكعبة مستقبلها بوجهه، حتى جاء السيد صديق من خلفه دون أن يراه، ووقف لبرهة ثم قال: - ها قد أدركت ما تمنيته يا رجل.

فابتسم الشيخ حزام دون أن يلتفت، ثم قال:

- لقد تأخرت كثيرًا يا صديقي.

ثم وقف وتعانقا عناقًا حارًا، قبل أن يستكمل الشيخ حزام كلامه قائلًا: - أظن أن وجهتك القادمة هي بلدك.

- لا مناص.

- كنت أعرف أنك سترجع يومًا، وحين قابلتك وأوصيتك بقيصر خيرًا، عرفت وقتها أن ميعاد رجوعك قد اقترب.

- قيصر! كنت تعرف إذن.

- إنني أعرف الكثير، لكني لا أريد أن أستبق الحدث، هل ستمكث طويلًا قبل الرحيل؟

- لا، ليلة فقط لأرتاح وأقص عليك ما حدث، وأسلم على سارة فقد اشتقت إليها كثيرًا.

- ألم أقل لك أنك تأخرت، سارة تزوجت ورحلت مع زوجها.

- حقًا! من مَن، وأين رحلا؟

- لا تتعجل، ستعرف كل شيء في وقته، أما الآن هيا بنا إلى المنزل فهناك رحلة طويلة لا بد أن تُرتحَل.

في الإسكندرية، في غرفة نوم تطل على فناء يطل شماله على البحر وشرقه على الشارع، تتدلى من السقف ستائر حريرية إلى أن تصل مُضطجع أشبه بفراش الملوك، وسارة أصابعها الناعمة الرقيقة تداعب خد قيصر ليفيق من نومه الغارق فيه، يفتح قيصر عيونه على وجهها الملائكي وثغرها المبتسم، فيمسك كفها ويقبله برفق قائلًا: - لطالما ذكرتني مداعبتك هذه بحكايات السيد صديق عن زوجته السيدة آلارا.

فابتسمت قائلة:

- لقد عرفت منك أنه أحبها أكثر من أي رجل أحب زوجته، لكنها أبدًا ما أحبته كحبي إليك، ألهب شمعة كلهب قنديل!

فضمها قيصر إلى أحضانه قائلًا:

- لقد مر قرابة العام أو أكثر مذ أن تركته، ما كنت أعرف كيف سيمر ذلك الوقت لولاكِ.

- لقد أصاب أبي حين عرض عليك زواجي إذن رغم رفضك.

- لقد كان لفراق شيراز وأبي أثر كبير في قلبي.

- أعرف جيدًا، ولهذا زوجنا أبي لأرفق بقلبك المكسور وقتها.

- إنني أحمد الله كل يوم أني قصدت مكة لألقاكم قبل المجيء إلى هنا.

- لقد أصبحنا في أمان، أتذكر حين جئنا وسألنا عن جدك حابي ولم نجده، لقد تملكك القلق وقتها، لكني كنت أعرف أني في كنف رجل قادر على حمايتي.

- صدقيني ما كنت أعرف وقتها كيف سأدبر أمرنا، لقد عشت يومًا بعام إلى أن وصل أخو جدتي الأكبر الذي يعرف القصة كاملة، واعترف بنا وأكرمنا، أتدري أنه أخبرني فيما بعد أن حابي لم يكن يعرف القصة أصلًا، وأننا لو كنا قد قابلناه ما كان عرفني.

فضحكت قائلة:

- فلتحمد الله أن جدك تاجر ويعرف لساننا وإلا ما كان فهمنا.

فضحك قيصر قبل أن يقول:

- أتذكرين أول أيامنا هنا، حين كنت أجلس بجوار جدي ولا أخاطب غيره ولا أفهم الناس، لم يرد على مخيلتي يومًا أني سأتعلم لغتهم بهذه السرعة.

فقبلته على خده ونظرت في عينيه قائلة:

- يا حبيبي أنت رجل قلما جادت به الأرحام، ولكن لا تنسَ رحلتنا.

- أي رحلة؟

- أنسيت، علينا أن نذهب للبحيرة الخضراء لاسترجاع نوح، ألم تكن تلك هي وصية أمه؟

فابتسم لها قيصر وقبلها في جبينها، وبينما يتبادلان الحديث سمعا صوتًا يأتي من الشارع لأحد أقارب قيصر صارخًا بلغته: - يا أبي يا أبي، لقد عاد عمي حابي.

هرع قيصر إلى النافذة المطلة على الشارع، فوجد جده الأكبر يهرول باتجاه ركب أخيه الذي لم يظهر بعد، فسأله قيصر: - ما الأمر يا جدي؟

فأجابه الرجل والسعادة تغمر وجهه الوردي المنحوت بالتجاعيد: - تعال يا قيصر، لقد عاد أخي، لقد عاد حابي.

لبسا قيصر وسارة على عجل وخرجا إلى الشارع، وإذ بهما يجدا الشيخ حزام واقفًا بجوار بعيره، فركضت سارة دون وعى إلى أحضان أبيها، أما قيصر فوقف مشتتًا يقلب ناظريه في الوجوه عله يفهم، فاقترب منه الشيخ حزام بعد أن عانق ابنته قائلًا: - لا تكن في حيرة من أمرك، سامحني يا بني، لقد كان في استطاعتي أن اختزل الحكاية كلها، لكني تركتك للأيام لتصنع منك رجلًا وإلا ما كنت أعطيتك ابنتي.

فنظر قيصر في عينيه مستنكرًا:

- لا أفهم ما تقول، أأنت حابي؟

- لا يا بني أنا كما أنا لم أغير اسمي مثلكما، ها هو حابي.

مشيرًا إلى جانب الطريق، فنظر قيصر ليرى شخصًا من ظهره غارقًا في أحضان جده الأكبر، فمشى على مهل ناحيته حتى انتهى العناق، ووقف دون أن ينطق بكلمة، حتى التفت له ذلك الشخص ليتفاجأ كل منهما بالآخر، وقفا لبرهة محدقين ببعضهما، والتحما في عناق حار طال حتى مل الواقفون.

لم يكن يدري أن السيد صديق الذي صاحبه طويلًا كان هو نفسه حابي أوزيري الأخ الأصغر لجدته، الذي ما كان يعرف شيئًا عنها أو عن قيصر، لكن هناك مَن عرف منذ أن قابل قيصر لأول مرة وأرسله إلى سالمة ليلتقي بحابي، لقد كان الشيخ حزام هو مَن دبر الحكاية كلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

إهـــداء

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون